

"الجواسيس"

محمد المرتجي

الفهرس

المقدمة

التجسس هو عملية الحصول على معلومات ليست متوفّرة عادةً للعامّة، وهو أحد الأنواع والسبل الملتوية في الحروب الحديثة والقديمة إضافة إلى أنه يمثل تربصاً "وخطراً داهماً" لكلا طرفي الحرب، ويعد أيضاً من العوامل المؤثرة دائما في كلا الحالتين للدول سواء كانت في "السلم والحرب".

والجاسوس هو الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت شعار كاذب ليحصل على معلومات عن العمليات العسكرية أو الاقتصادية مهما كان حجم المعلومة لدولة محاربة بهدف إيصالها للعدو، فهم يعملون في وقت الحرب والسلم ويحصلون على معلومات لتعزيز جبهة الدولة التي يتجسسون لحسابها، في حالة نشوب حرب

جديدة في الحصول على معلومات عن تطور الأسلحة الحربية في الدول الأخرى وما وصلت إليه من تكنولوجيا حديثة، ومن اجل تقوية الصراع القائم بين الدول على القواعد الاستراتيجية والسيطرة على مناطق النفوذ، والاستفادة من الاضطرابات السياسية في بقاع العالم، والامثلة عن هذه الدولة كثيرة لا تحصى وتكاد تكون روتين يومي للحصول على المعلومات.

وأيضا الجاسوس هو الفرد الذي يمارس التجسس، أو أكثر عموما هو الشخص الذي ينشط فيما يتعلق بجمع المعلومات السرية للاستخبارات وهذا يعني التجسس في الدولة.

وهو اللقب الذي يطلق على الشخص الذي يقوم بجمع معلومات شخصية أو أمنية أو أياً كان ما طلب منه أو تتعلق بالمجتمع بشكل سري غير معلن من دون تخويل أو سماح من الجهة التي جمع عنها أو منها المعلومات، بطرق عدة وتمرير هذه المعلومات إلى جهة أخرى.

أستعرض معكم في هذا الكتيب البسيط عن حياة بعض الجواسيس حول العالم من عدة جوانب و أزمنة من حياتهم ومذكراتهم بعضهم موثق والبعض اجتهاد مني .. أرجوا أن تعذروني مقدما اذا وقع خطأ بالكتابة أو النقل..

محمد المرتجى ....

تصنيف العملاء الجواسيس:

- عميل نائم: هو عميل متاح في كل الأوقات وعلى كل الأراضي في انتظار استقبال مهمة.

- عميل لاجئ: هو عميل سري فار من بلده ليتلجأ لبلد أخر ويقترح المعلومات التي يحملها.

- عميل والك إن: **walk-in agent** عميل ينتمي إلى منظمة مثيرة للاهتمام للاستخبارات (جهاز مخابرات معاكس/أخر، أو خلية إرهابية) والذي يأتي عفويا للتعاون معهم.

- عميل مزدوج: وهو العميل الذي يعمل لجانبين أو طرفين متناقضين بدون علم منهما أو على علم في بعض الأحيان.

- عميل غير شرعي: هو عميل يعمل في سرية في بلاد أخرى بدون علم سلطات دولته.

- عميل شرعي: هو عميل يعمل بعلم وموافقة سلطات دولته في دولة أخرى وهو عكس عميل غير شرعي الذي يعمل سريا في دولة أخرى.

- عميل متحد: هو عميل يعمل بهدف كشف أشخاص أخرين أو عملاء سريين.

- عميل مؤثر: وهو عميل يعمل لبعض المصالح في دولته بهدف الهدنة أو المصالحة أو لانقلاب شخص على دولته.

- عميل مخترق: هو عميل يعمل للانضمام لمنظمة هو ليس عضوا فيها ويخترقها ويتغلغل فيها لمعرفة معلومات هامة.

- عميل مقابل: هو عميل يعمل مع المخابرات المنافسة أو مخابرات الدول الأخرى غالباً هو عميل العلاقات بين المخابرات.

قبل البدء في الدخول الى عالم التعريف عن أشهر جواسيس العالم وصفاتهم ومهاراتهم، سنجد سؤالا مهما يدور بالأذهان دائما، لماذا يقوم الجاسوس بهذا الفعل؟ وهل يعي المخاطر؟ هل هناك أمل بالنجاح؟ وما هي ضريبة الفشل؟

بكل اختصار،

بعضهم يفعلها خدمة للوطن أو المبدأ أو الفكرة، البعض يؤديها كمهنة، كثيرون مارسوها من أجل المال، كمغامرة كبيرة واحتمالات عالية للفشل والثمن حتمًا هو الموت.

فعالم الجاسوسية، عالم غريب مجهول مليء بالأسرار الغامضة، والقضايا المستعصية على الفهم، دخول هذا العالم قد يكون يسيرا لكنه ليس متاحا للجميع، غير أن تكلفة الخروج منه غالية جدا، فأحيانا يصبح ثمنها الحياة.

أشخاص ضحوا بكل شيء لصالح أوطانهم، وعرضوا حياتهم للخطر سعيا وراء أرقام ومعلومات سرية، وآخرون باعوا بلدانهم بثمن بخس تحت ذريعة ما سموه بالمبادئ او فقط حبهم للمال!

نبدأ عزيزي القارئ في جولة في تاريخ الجاسوسية من خلال بطاقات تعريفية لأشهر الجواسيس سواء بنجاح بعضهم او فشلهم، والترتيب عشوائي فكل منهم مميز بشكل محدد ومعين عن غيره.

رأفت الهجان:



رأفت الهجان هو الاسم الحركي للمواطن المصري الشهير رفعت علي سليمان الجمال (1 يوليو 1927 - 30 يناير 1982)

تورط في أعمال مخالفة للقانون في مصر وإنجلترا وألمانيا وفرنسا وأمريكا قبل أن يتم القبض عليه في ليبيا وترحيله إلى مصر، قامت ثورة يوليو 1952، وشعر البريطانيون بالقلق، بشأن المرحلة القادمة، وأدركوا أن المصريين يتعاطفون مع النظام الجديد، فشرعوا في مراجعة أوراقهم، ووثائق هوياتهم، مما استشعر معه "رفعت" الخطر، فقرَّر ترك العمل، في شركة قناة "السويس"، وحصل من ذلك المزوِّر على جواز سفر جديد، لصحفي سويسري، يُدعى "تشارلز دينون". وهكذا أصبح الحال معه من اسم لاسم ومن شخصية مزورة لشخصية أخرى

إلى أن ألقي القبض عليه من قبل ضابط بريطاني أثناء سفره إلى ليبيا بعد التطورات السياسية والتغيرات في 1953 واعادوه لمصر واللافت في الموضوع انه عند إلقاء القبض عليه كان يحمل جواز سفر بريطاني إلا أن الضابط البريطاني شك أنه يهودي وتم تسليمه إلى المخابرات المصرية التي بدأت في التحقيق معه على أنه شخصيه يهودية.

وقد ذكر في مذكراته عن هذه الفترة او المرحلة:

"وبعد أن قضيت زمنًا طويلاً وحدي مع أكاذيبي، أجدني مسرورًا الآن إذ أبوح بالحقيقة إلى شخص ما. وهكذا شرعت أحكي لحسن حسني كل شيء عني منذ البداية. كيف قابلت كثيرين من اليهود في استوديوهات السينما، وكيف تمثلت سلوكهم وعاداتهم من منطلق الاهتمام بأن أصبح ممثلا. وحكيت له عن الفترة التي قضيتها في "إنجلترا" و"فرنسا" و"أمريكا"، ثم أخيرًا في "مصر". بسطت له كل شيء في صدق. إنني مجرد مهرج، ومشخصاتي عاش في التظاهر ومثل كل الأدوار التي دفعته إليها الضرورة ليبلغ ما يريد في حياته."

بعد محاولات عديدة اتسمت بالشد والرخي من قبل ضابط البوليس السري حسن حسني، عُرض خياران للهجان إما السجن وإما محو الماضي بشخصيته بما فيه رفعت الجمال وبداية مرحله جديده وبهوية جديدة ودين جديد ودور قمة في الأهمية والخطورة والعمل لصالح المخابرات المصرية.

في مذكراته،

يكشف "رفعت الجمَّال" بأنه قد انضمّ، أثناء وجوده في الإسكندرية، إلى الوحدة اليهودية (131)، التي أنشأها الكولونيل اليهودي إبراهام دار، لحساب المخابرات الحربية الإسرائيلية "أمان"، والتي شرع بعض أفرادها في القيام بعمليات تخريبية، ضد بعض المنشآت الأمريكية والأجنبية.

على نحو يجعلها تبدو كما لو أنها من صنع بعض المنظمات التحتية المصرية، فيما عرف بعدها باسم فضيحة لافون، نسبة إلى بنحاس لافون، وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك.

وفي الوحدة (131)، كان (رفعت) زميلاً لعدد من الأسماء، التي أصبحت فيما بعد شديدة الأهمية مثل مارسيل نينو وماكس بينيت، وإيلي كوهين، ذلك الجاسوس الذي كاد يحتلّ منصبًا شديد الحساسية والخطورة، بعد هذا بعدة سنوات، في سوريا. (سوف نتحدث عنه لاحقاً).

تجسس الهجان لسنوات لصالح المخابرات المصرية تحت مطية شركة السياحة التي يمتلكها، وينسب إلى الهجان تزويد مصر بمعلومات هامة تتعلق بموعد الهجوم الإسرائيلي في عام 1967، وبعض التجارب النووية الإسرائيلية فضلا عن معلومات هامة تتعلق بتحصينات العدو قبيل حرب أكتوبر 1973.

لم يكن "رفعت الجمال" جاسوساً عاديّاً، فهو من عاش في إسرائيل مخترقاً الصفوة السياسيّة والاقتصادية والعسكريّة، واضعاً هذا المجتمع بأسراره وتجهيزاته ضدّ مصر، على طبقٍ من ذهب بين أيادي رجال المخابرات المصريّة.

فكانت جلساته مع موشيه ديان وجولدا مائير وشيمون بيريز، وكوّن علاقات صداقة قويّة مع جنرالاتٍ وضبّاط بالجيش الإسرائيلي وضباط بالموساد والشاباك، ونقل إلى مصر من تل أبيب موعد الهجوم بالساعة والتفاصيل في العدوان الثلاثي عام 1956، ونفس الأمر لنكسة يونيو.

أهم إنجازاته:

- تزويد مصر بميعاد العدوان الثلاثي على مصر قبله بفترة مناسبة إلا أن السلطات لم تأخذ الأمر بمأخذ الجد.
- تزويد مصر بميعاد الهجوم عليها في 1967 إلا أن المعلومات لم تأخذ مأخذ الجد لوجود معلومات أخرى تشير بأن الهجوم سيكون منصبا على سوريا.

- إبلاغ مصر باعتزام إسرائيل إجراء تجارب نووية، واختبار بعض الأسلحة التكنولوجية الحديثة، أثناء لقائه برئيسه علي غالي في ميلانو.
- زود مصر بالعديد من المعلومات التي ساعدت مصر على الانتصار في حرب أكتوبر.
- كانت له علاقة صداقة وطيدة بينه وبين موشي ديان وعيزر وايزمان وشواب وبن غوريون.

توفي الجمال بعد معاناته بمرض سرطان الرئة عام 1982 في مدينة دارمشتات القريبة من فرانكفورت بألمانيا ودُفن فيها.

في كتاب صادر عن الصحفي الصهيوني إيتان هابر الذي كان يعمل رئيسًا لديوان رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، كشف عن رواية مخالفة للهجان مفادها أن الصهاينة عرفوا هوية رفعت سليمان الجمال، وجندوه عميلا وجاسوسا لهم في مصر، وأنه زودهم بمعلومات قادتهم إلى القبض على شبكات تجسس مصرية في الكيان الصهيوني، وفي المقابل نقل للمصريين معلومات ساهمت في تدمير طائرات سلاح الجو المصري عام 1967، إلا إن مصر شككت في هذه الرواية الصهيونية واعتبرتها محاولة اسرائيلية لتزييف التاريخ.

******



كيم فيلبي:

هارولد ادريان روسل كيم فيلبي (**Kim Philby**)

(1 يناير 1912 - 11 مايو 1988)..

الشهير بـ "كيم فيلبي" أحد أشهر الجواسيس في القرن العشرين.

ولد كيم في أمبالا في ولاية هاريانا بالهند. والده سانت جون فيلبي كان ضابطاً بالجيش البريطاني، دبلوماسياً، مستكشفاً، مؤلفاً ومستشرقاً. الوالد كان قد اعتنق الإسلام واتخذ الاسم "الشيخ عبد الله". وكان قد لعب دوراً محورياً في الثورة العربية وشركة أرامكو ثم عمل مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود في عام 1967.

وكان "فيلبي" مسئولا كبيرا في جهاز المخابرات البريطانية عن مكافحة نشاط المخابرات السوفيتية **KGB**، لكن السوفييت جندوه لحسابهم، لم يكن فيلبي من نوعية الجواسيس الذين تم شراؤهم بالمال، ولكنه ماركسي مخلص للشيوعية وضحى في سبيل ذلك ببلده وجنسيته.

قلة من الخائنين البريطانيين والجواسيس تمكنوا من لفت الانتباه لهم كما فعل كيم فيلبي.

اتسم بأنه عبثي متعجرف تهكمي ومليء بالثقة بالنفس، وأيضا جاسوس ذكي تمكن بكل مهارة من التفوق على وكالات التجسس البريطانية التي عمل معها.

وكان ماركسيا مخلصا للنظام السوفييتي بكل مساوئه على النظم الغربية الديموقراطية وضحى في سبيل الماركسية بكل شيء بما في ذلك جنسيته وسمعته.

رغم أنه كان مرشحا لتولي إدارة المخابرات البريطانية.

وحين انكشف أمر جاسوسيته للسوفييت عام 1963, كانت فضيحة مدوية في بريطانيا والغرب، وهرب إلى روسيا وأمضى بها بقية حياته.

استطاع خداع البريطانيين لفترة طويلة، كان يقوم بنقل اسرارهم الي المخابرات الروسية، لم تعرف بريطانيا بذلك الا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكانت معاملة ابوه السيئة السبب في انجذابه للجاسوسية، وكان ذا ميول شيوعية، تولى العديد من المناصب في المخابرات البريطانية حتى كاد ان يكون مدير المخابرات، هرب الى بيروت ثم إلى روسيا، وتزوج من فتاة روسية وهي الزوجة الرابعة له.

اعتنق فليب الشيوعية منذ كان طالبًا في جامعة كامبريدج بين عامي "1928-1933"، في عام 1932 ذهب إلى ألمانيا ليشهد الانقلاب المفاجئ الناتج عن انتخاب فرانز فون بابن كمستشار لألمانيا وانتخاب النازيين للرايخ. وكما يذكر فيلبي في مذكراته فقد حرص على دراسة الوضع السياسي هناك حيث شارك في حروب شوارع دارت في ألمانيا وانضم إلى الشيوعيين في صراعهم ضد أصحاب القمصان البنية من النازيين حيث انضم للعمل لصالح المخابرات السوفييتية، وقام بأعمال تجسس لصالحها في كل من فرنسا وإسبانيا أثناء الحرب، قبل انضمامه اليسير للعمل في صفوف الاستخبارات البريطانية عام 1940.



فيلبي مثل الكثير من الجواسيس في الاستخبارات البريطانية لم يكن عليه أن يبذل جهودا كبيرة لينجح في عمله، فقد ولد في الهند البريطانية لأسرة تنتمي للطبقة العليا وكان والده ضابطاً مدنياً ذا رتبة عالية. وعقب تخرجه من إحدى مدارس الأرستقراطيين عام 1928 التحق بجامعة كامبردج وتخرج منها عام 1933 من كلية ترنتي التي كانت أول بناء في عمله كجاسوس سوفييتي مزدوج. وفيها قابل شباب مثله سوف يصبحون جواسيس سريين لموسكو مثل انطوني بلانت وجاي بورجيس ودونالد ماكلين وآخرين.

جميعهم اقسموا في وقت مبكر على الولاء للشيوعية وجندوا كجواسيس لل **KGB** وإن كان فيلبي الذي عرف بشدة حذره لم ينضم أبدا للحزب الشيوعي.

واستغل الأموال التي كان والده يمده بها واخذ عطلاته الصيفية في فرنسا والنمسا وألمانيا حيث قال لوالده انه سوف يدرس الظروف السياسية في البلاد التي قامت بثورات، وفي عام 1932 ذهب إلى ألمانيا ليشهد الانقلاب المفاجئ الناتج عن انتخاب فرانز فون بابن كمستشار لألمانيا وانتخاب النازيين للرايخ.

وكما يذكر فيلبي في مذكراته فقد حرص على دراسة الوضع السياسي هناك حيث شارك في حروب شوارع دارت في ألمانيا وانضم إلى الشيوعيين في صراعهم ضد أصحاب القمصان البنية (النازيين) وعاد إلى كليته بجرح غائر في رأسه ادعى انه نتج عن عاصفة أسقطته على قضيب معدني.

وبعد ذلك عاد مرة أخرى إلى ألمانيا حتى صادق مروج الدعاية والناشر الشيوعي ويلي مزنبرج الذي ساعده في اقامة مؤتمر السلام العالمي مع اللورد روبرت سيسيل الذي راس المؤتمر وهذه المنظمة استخدمها المخرج العالمي الفرد هيتشكوك في فيلم التجسس الرائع "المراسل الخارجي" 1940.



وفي هذا الوقت ارتبط فيلبي وأصدقاؤه بشكل عميق بالشيوعية وجندهم الحزب الشيوعي على يد رؤسائه مثل روي باسكال وموريس دوب. ومن الواضح انهم كانوا مستعدين للتجسس على إنجلترا البلد الذي تخلوا سرا عنه في سنواتهم الأولى في الجامعة.

وعند تخرجه عمل فلبي في الصحافة وبحث عن وظيفة في صحف سياسية معتدلة واخفى معتقداته الشيوعية.

وعندما اندلعت الحرب الإسبانية حصل فيلبي على عمل كمراسل لصحيفة لندن وهي وكالة صحافة صغيرة لتغطية الحرب.

ولكنه في الواقع كان قد أرسل إلى إسبانيا من قبل السوفييت للتجسس على الثوار ضد الجمهوريين.

فيلبي و بورجيس جندا نفسيهما مع البعثة الدراسية الانجلو -ألمانية، وحضرا حفلات عشاء رسمية، أقيمت بهدف جلب تمويل للجماعات النازية إذ كان الصليب المعقوف شارة الحزب النازي يظهر بوضوح على الموائد الطويلة، ولكن عضويتهما لهذه الجماعة كانت مخلصة لل **KGB** ومبادئ الحزب النازي.

انتماء فيلبى إلى عضوية جماعة البعثة "الانجلو ألمانية" جعله يبرز نفسه كصحافي ورحب به في مراكز قيادة فرانكو. وتحرك من مدينة إلى أخرى وهي تحتل من قبل فرانكو وكان ينقل المعلومات من القادة الثوار ويرسلها إلى القيادات الشيوعية وهي المعلومات التي كانت تظن موسكو أنها الأكثر أهمية.

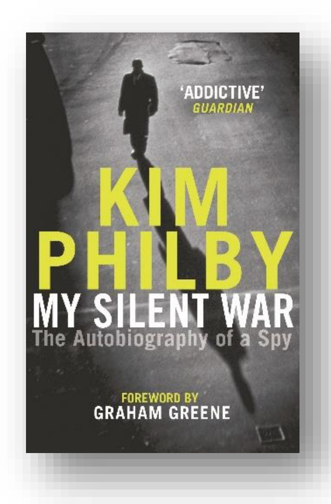
وعندما انهار الحزب الجمهوري عام 1939 استخدمت "التايمز" فيلبي كمراسل لألمانيا.

وكان في موقع ممتاز للتجسس على النازي لحساب السوفييت، ثم عاد إلى إنجلترا واندلعت الحرب بين بريطانيا وألمانيا ولكنه أرسل إلى فرنسا وفي هذا الوقت أصبح مراسلاً حربياً متمرساً واظهر احتراماً زائداً للقائد الأعلى البريطاني.

وتمكن من الدخول إلى الأسرار العسكرية الأكثر أهمية والتي كان يرسلها إلى موسكو.

يعتبر فيلبي الرجل الأبرز ضمن ما يعرف بـ" سلسلة جواسيس كامبردج الخمسة" أو "خماسي كامبردج"، وعندما هرب زميلاه في الجاسوسية دونالد ماكلين و غاي بورغيس إلى الاتحاد السوفييتي عام 1951، ساء وضع فيلبي، لكنه سرعان ما استعاد مكانته بعد الكثير من التحقيقات التي فشلت في إدانته بسبب ثقة رؤسائه، قبل أن يقرر فيلبي ترك عمله في بيروت والهجرة إلى موسكو عام 1963 حيث بدأت تتكشف الأدوار التي كان يقوم بها لصالح السوفييت بعد أكثر من 23 عامًا، حيث مكث فيليبي يعمل لصالح الاستخبارات السوفيتية حتى وفاته عام 1988.

الحدث الأبرز فيما يتعلق بـ فيلبي كان كتابه "حربي الصامتة" الذي أصدره من موسكو عام 1967 وكشف فيه عن تفاصيل عمليات التجسس التي قام بها على مدار أكثر من 20 عاما والذي طبعت منه عشرات الطبعات ويعد أحد أهم مراجع الجاسوسية وبسببه اعتبر فيلبي أحد أهم جواسيس القرن العشرين.



وتمكن فيلبي من أن يكون النموذج المثالي للجاسوس الشيوعي وقد منحه السوفييت مكتباً في مراكز قيادة ال **KGB** ولقب جنرال.

ومنح وسام لينين الذي كان يظهره بكل فخر لأصدقائه البريطانيين الذين كانوا يزورون موسكو. وظل حتى النهاية يسخر من بلده الأم إنجلترا ولم يعتبر نفسه أبدا خائناً لبلده حيث يكتب هذا: حتى تخون يجب أن تكون منتمياً أولا وأنا لم أنتم أبدا لهذا النظام المنافق".

وفي مايو/ايلول 1988 توفي فيلبي وقال في نهاية مذكراته انه يريد أن يدفن في الاتحاد السوفييتي في هذا البلد الذي اعتبرته بلدي منذ الثلاثينات وعند وفاته نال التكريم من البلد الذي اخلص له ولكن لم يذكره أحد في وطنه الأم .

*****



سيدني ريلي:

إيان فليمنج مبتكر شخصية جيمس بوند الشخصية الاسطورية الجاسوسية يقول انه ابتكرها من خلال عمله في الاستخبارات العسكرية البريطانية ولكن الحقيقة أخفي أو انه سقط سهوا من المؤرخون، كان هو اول من جعل إيان فليمنج يبتكر شخصية جيمس بوند وهو الجاسوس البريطاني "سيدني ريلي" جاسوس من أعظم الجواسيس البريطانية وسيدني هذا هو أبرز شخصية في عالم المخابرات البريطانية بالفعل فهو التصوير الحي المباشر لشخصية جيمس بوند بما له من شجاعة.

كانت المخابرات السوفييتية تطارد ريلي في كل أنحاء الارض فلقد صدر في حقه أكثر من عشرين حكما بالإعدام ومع ذلك كان يدخل الاتحاد السوفييتي ويخرج منه أن يكتشفه أحد..

كما أن ريلي كان يحمل إحدى عشر جواز سفر أصلي لإحدى عشرة جنسية مختلفة وله مع كل جواز سفر زوجة في ذلك البلد الذي ينتمي له الجواز كما كان يجيد التحدث بستة لغات حية بطلاقة.

كان سيدني ريلي شخصية غامضة حتى للمخابرات البريطانية التي لم تكن تعرف جنسيته الاصلية ومولده.. علي الرغم من أنه كان يعمل لحسابها..

ريلي يستحق بجدارة لقب الجاسوس الخفي ورغم انه حمل أكثر من جواز سفر يقال انه ولد في تيبراري في ايرلندا ولكن الارجح انه ولد في جنوب روسيا قرب اوروبا في 4 مارس عام 1874 وفي سن 19 قال ريلي انه اكتشف ان الكولنيل في الجيش الروسي والذي كان متزوجا من امة لم يكن اباة وانه كان ثمرة لعلاقة بين أمه وطبيب من فيينا. وان اسمه الحقيقي هو شيفوند غيورغيفيتش روزنبلوم. وصدمة اكتشافه بانه يهودي جعلته يهرب من روسيا الي جنوب امريكا على سفينة بريطانية.

وعمل هناك في الميناء وفي اصلاح الطرقات وكعامل زراعي.. ثم عمل طباخا في بعثة بريطانية تستكشف مجاهل الامازون، وعندما هاجم السكان المحليون المعسكر.. كانت براعة ريلي في إطلاق الرصاص ارعبتهم وردتهم.

وتأثر قائد البعثة الميجر فوثرجيل بشجاعته وبتمكنه من عدة لغات منها الروسية والألمانية واعطاه 1500 جنيه وعرض عليه ان بعمل في الخدمة السرية. وبدأ عمل ريلي كعميل حر.

وعندما دخل القرن العشرين كان في هولندا بشخصية المانية يراقب مساعدات الهولنديين للبوير الذين كانوا يحاربون البريطانيين في جنوب افريقيا وكانت لـ ريلي موهبة خارقة في توقع مناطق المشاكل الكبيرة في العالم والحضور فيها باكرا، وقد لاحظ امكانيات النفط المكتشف في الشرق الاوسط وقد حذر بريطانيا من انها قد تخسره. وذهب الي إيران وعلم ان الشاه اعطي امتيازات التنقيب لويليام دي ارسي وهو استرالي.

وكان في كانز يناقش الدعم المالي للمشروع مع روتشلد الثري وتنكر ريلي ك قسيس ودخل الي اليخت العائلي الراسي علي الساحل الفرنسي يطلب معونات للفقراء وبينما كان روتشيلد يكتب له الشيك سحب دي ارسي جانبا، ووعده بان الحكومة البريطانية ستزيد علي اي عرض يقدمه روتشيلد، وفي ايار 1950 قبض ارسي 900000 جنيه كأرباح من الشركة التي تكونت بجهود ريلي.

وهي شركة البترول البريطاني الشهيرة بـ **B.p** وبعد ذلك أمضي عدة سنوات في الشرق الأقصى يجمع المعلومات عن القوة البحرية الروسية ودفاعاتها الشرقية.

وفي عام 1914 عاد الي اوروبا ونفذ عددا من المهمات التي لا يمكن تصديقها، ونال بسببها الصليب البريطاني العسكري، وقبل ان تندلع الحرب تمكن من التسلل الي معامل كروب للسلاح في ايسن كعامل يحمل اسم كارل هاهن.

وقد تطوع لنوبات عمل ليلية اضافية تمكن خلالها من السطو على ملفات فائقة السرية في مكاتب المصنع العظيم ونقل كل تفصيلات برنامج انتاج الاسلحة وعندما ضبط متلبسا قتل اثنين من الحراس وهرب.. وفي روسيا كان متنكرا كرجل اعمال غني وتبرع بتنظيم اسبوع سان بطرسبرغ للطيران.

وكان يجمع المعلومات بسهولة من الزوار الالمان عن تطور الطائرات ثم اقنع بناة البحرية الالمانية بلوهم وفوس ليجعلوه وكيلهم المعتمد لتصدير المنشآت البحرية الي روسيا، وقد كسب عمولات كبيرة من المبيعات فكان نجاحه رائعا لدرجة ان البريطانيين في سان بطرسبرغ تقدموا بشكوى لسفير بريطانيا مفادها ان هذا الرجل كان يحرم الشركات البريطانية من الاعمال.

في عام 1917 عاد ريلي الي لندن وبرغم انه تجاوز الاربعين فقد تطوع لتجربة نوع جديد من التجسس وذلك بالنزول بالمظلة خلف خطوط العدو وجمع المعلومات.

وقد انزل بالمظلة قرب مانهايم مع اوراق مزورة تثبت انه من معاقي الحرب في الجيش الالماني وخلال ثلاثة اسابيع حصل على معلومات هامة عن خطط الهجوم الالمانية لعام 1918 ثم تنكر ريلي كضابط الماني وامضي عدة ايام في مقر للضباط في كونيغبرغ في شرق بروسيا يسجل كل ما يسمعه من معلومات.

وكان أعظم انتصار له هو الجلوس في اجتماع للقيادة العليا الالمانية كان يحضره القيصر نفسه. تمكن ريلي من ان يجعل نفسه سائقا لضباط من معاوني الأمير روبرشت من بافاريا واثناء ذهابه معه الي مجلس الحرب تظاهر ريلي ان السيارة قد تعطلت ورفع غطاء المحرك ليحاول اصلاحها وعندما انضم اليه الضابط الذي فقد صبره قتله بضربة على الرأس في هدوء الطريق المظلم ولبس زيه العسكري، وذهب للاجتماع معتذرا ببرود عن التأخير لان سائقه سقط مريضا وجلس يسجل ملاحظاته حول خطط المعارك المقبلة.

تمكن من انذار الادميرالية البريطانية عن هجوم بالغواصات لتدمير خطوط الامداد عبر الاطلسي.

ووجد قادة غواصات اليوبون أهدافهم محمية جدا بالمدمرات القوية.

في أبريل 1918 عاد ريلي ثانية الي روسيا وكان البولشفيك قد استلموا السلطة في السنة السابقة. وكان من المحتمل ان يعلنوا السلام مع الالمان ويسمحوا لقوة القيصر كلها بان تتوجه نحو الغرب.

ووافق رئيس الوزراء البريطاني دايفد لويد جورج على محاولة قلب النظام الشيوعي لإيقاف الهدنة مع الالمان.

وكان ريلي الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يفعل شيئا وزوده أحد عملائه في الشرطة السرية السوفييتية الجديدة بجواز سفر تشيكيا مرور فأخذ ينظم خلايا المقاومة.

وجمع أكثر من مليونين من الروبلات من المتعاطفين مع الروس البيض.

في عام 1966 نشرت مجلة روسية ان ريلي بعد اعتقاله عرض ان يبوح بكل ما يعرف عن البريطانيين والامريكان وشبكات استخباراتهم، وفي عام 1972 نشرت مجاة في باريس ان ريلي كان طيلة الوقت عميلا سوفييتيا مزروعا في الغرب.

ان سجلات المخابرات الروسية هي الوحيدة القادرة على اماطة اللثام عن لغز ريلي الاخير، وقد ظهر مسلسل تلفزيوني عن حياته في لندن عام 1983 وصفه بانه اول جاسوس في العالم، ولم يحقق اي جاسوس ما حققه بجرأته وكان اسطورة في زمانه، وربما كان قد ترك ارثا مدمرا إذا كان ما ادعاه كريفيتيسكي وغيره صحيحا وانه أخبر الروس طوعا أو كرها كيف يتسربون الي المؤسسات البريطانية فانه يكون قد فتح الطريق لحلقة جواسيس قاربت انجازاتهم نفس ما قدمه هو من الاهمية.

*****



ريتشارد سورج:

وُلد في 4 أكتوبر 1895 بضاحية صابونجي في باكو بأذربيجان التابعة للإمبراطورية الروسية في ذلك الوقت وأعدم في سجن سوجامو في العاصمة اليابانية طوكيو بتاريخ 7 نوفمبر 1944.

شخصٌ أعرج، يتقنُ العديد من اللغاتِ والمهارات، والعلاقات. زيرُ نساء، كثيرُ الشرب للخمور، قام بأفعالٍ أقرب ما تكون للفنتازيا منها إلى الواقع.

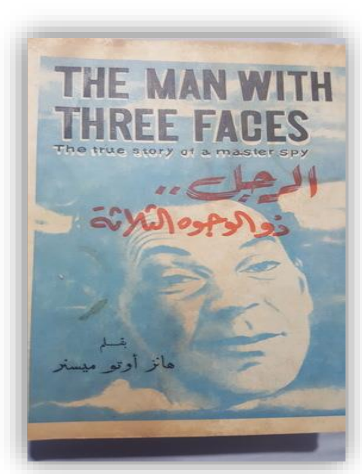
يقال إن ريتشارد سورج جاسوس غيّر مسار الحرب العالمية الثانية وأنقذ الاتحاد السوفيتي!!

في الحرب العالميَّة الثانية، شارك 100 مليون جنديّ في المعركة، وقُتل ما يقرب من 50 إلى 85 مليون جندي ومدني.

كانت حربًا مجنونةً بالفعل، لكنّ الأكثر جنونًا، أن يتحكَّم شخصٌ واحد في عدَّة ملايين من الأرواح. ليس لأنَّهُ «جوزيف ستالين»، وليس لأنَّهُ فوهرر ألمانيا «أدولف هتلر»، وليس كذلك لأنَّهُ «ونستون تشرشل» أو «فرانكلين روزفلت»، أو أيّ من القادة الكبار الذين تحكَّموا في ملايين الأرواح.

ولكنّ لأنَّهُ جاسوس، وبمعلومةٍ واحدة لم تتجاوز مائتي حرف كتبها في رسالة إلى الاتحاد السوفيتي، أنقذهُ من الاحتلال النازيّ الكامل للعاصمة موسكو.

من يقرأ تاريخ ريتشارد سورج في كتاب "الرجل ذو الوجوه الثلاثة" للألماني هانز أوتومسنر والصادر عام 1966 يدرك بوضوح أن خبراء الجاسوسية لم يكونوا مبالغين إطلاقا حين أطلوا على سورج أنه أخطر وأنجح جاسوس في التاريخ.



كان يعمل والده في شركة نفط آسيويَّة، وكانت باكو (اذربيجان) تابعة للإمبراطورية الروسية. كان سورج الابن التاسع في أسرته، والأصغر من بين إخوته.

بعد اندلاع الحرب العالميَّة الثانية في أكتوبر 1914 جند سورج في الجيش الألماني، كان في 18 فقط من عمره، وتمّ تعيينه في كتيبة مدفعيَّة الميدان.

في مارس 1916، أصيب سورج إصابات بالغة الخطورة، فقد قطعت الشظايا ثلاثة أصابع من يده، وكسرت ساقيه ما جعلهُ يعرجُ مَدَى الحياة. نال على أثر هذه الإصابات وسام «الصليب الحديدي».

أثناء فترة نقاهته، قرأ لكارل ماركس وأصبح شيوعيًّا، وأثناء فترة الحرب كلها بدأ في دراسة الاقتصاد في جامعة «برلين» وجامعة «كيل» وجامعة «هامبورغ».

وقد تحصَّل على رسالته للدكتوراه من جامعة هامبورغ في العلوم السياسيَّة، في أغسطس (آب) 1919، بعد انضمامه للحزب الشيوعيّ الألمانيّ سافر إلى موسكو، حيثُ أصبح هناك عميل مخابرات تحت التدريب، ليكمل مشواره الذي سيجعله أحد أخطر وأعظم رجال عالم الجاسوسيَّة في التاريخ.

كان سورج قد تزوج من «كريستين جيرلاش – **Christiane Gerlach**» الزوجة السابقة لأستاذه عالم الاجتماع الألمانيّ «كورت ألبرت جيرلاش – **Dr Kurt Albert Gerlach**» لكنَّهما تطلَّقا بالفعل بسبب شيوعيته، أو بسبب إتقانه لعمله، أو بسببهما معًا.

فبعد انضمامه للاستخبارات العسكريةِ الروسيَّة، التابعة للجيش الأحمر، انغمسَ سورج في عمله تمامًا، ما عجَّل بالطلاق. على كلٍّ لم يكن سورج الشخص الذي يرضى بزوجةٍ، أو «عشيقةٍ» واحدةٍ في حياته.

وانطلق سورج في عالم الجاسوسيَّة.

كانت أولى مهامُّه الخطيرة عندما تم إيفاده إلى بريطانيا، ليدرس الحركة العماليَّة في بريطانيا، والحزب الشيوعيّ البريطانيّ.

وما لبث الرجل الشيوعيّ أن سافر إلى برلين ليدخل في مفاصل الحزب النازيّ نفسه، دون أن يُبدي أو يَظهر عليه أيَّة ميول يساريَّة بالطبع.

عُرف سورج كصحافيّ ألماني مشهور، وتدثَّر بعباءة الصحافة مخفيًا جاسوسيَّته الخطيرة عن الجميع. كان سورج مختلفًا، وموهوبًا، ربما بفطرته.

فعندما ذهب إلى الصين، جاسوسًا بالطبع، كان غطاؤه الأساسيّ هو الصحافة، فتخصَّص سورج في الشأن الزراعي الصينيّ، وألَّف كتابًا في الأمر.

كانت علاقاته بالطبع بالحزب الشيوعي الصيني قويَّة، عاد إلى موسكو من جديد ليُنتدب إلى المهمَّة الأخطر والأهمّ في حياته، وربما في تاريخ الاستخبارات الروسية نفسها.

أمّا المعلومة الهامشيَّة أنّ سورج قد تزوَّج بالطبع في الصين.

استدعي سورج عام 1933، وكانت مهمَّته الخطيرة «تكوين شبكة جاسوسيَّة في اليابان»، باسمٍ رمزيّ هو «رامزي **Ramzay**».

عاد إلى برلين من جديد، ليستطيع أن يحصل على مهمَّة صحافيَّة في اليابان، جدد قائمة علاقاته، وجهّز نفسه تمامًا، وفي سبتمبر (أيلول) 1933 وصل العميل الخطير سورج إلى يوكوهاما.

بالطبع لم يكن لسورج أيَّة علاقات تربطه بالحزب الشيوعيّ في اليابان، ولا بالسفارة السوفيتيَّة هناك، كانت علاقاته مع السفير الألمانيّ في اليابان نفسه!

تلك العلاقة كانت غريبة بعض الشيء...

أسس سورج شبكة جاسوسيَّته القويَّة في اليابان بالفعل، وكانت علاقته القويَّة مع الملحق العسكريّ في السفارة الألمانيَّة في اليابان «**Eugen Ott**»، كان يوجين يثقُ في سورج للغاية، لم يكن سورج سوى صحافيٍّ ألمانيٍّ بارز، لكنّ تأثيره في الملحقّ العسكريّ كان كبيرًا للغاية.

في عام 1938 تمّت ترقية يوجين لرتبة «لواء»، ثُمَّ أصبحَ بعد ذلك سفير ألمانيا في اليابان.

أكَّد ملحق جهاز الغاتسابو في السفارة الألمانية في اليابان، أنّ العلاقة بين السفير الألماني يوجين أوت والصحافيّ ريتشارد سورج، أصبحت قريبةً جدًّا، كما أكد أنّ التقارير التي ترسل إلى برلين هي مجرد زوائد عن التقرير المفصَّل الذي يعده سورج ويوقِّع عليه السفير.

كانت علاقة سورج بالسفير قويَّة جدًّا بالطبع، أعطاهُ السفير ثقتهُ الكاملة، وكان يأخذ رأيه في قراراته، ويعرضُ عليه المعلومات التي تأتيهِ من برلين، وثق فيه تمامًا، وبعد فترة كانت زوجة يوجين، هيلما أوت، إحدى عشيقات الجاسوس ريتشارد سورج الكثيرات جدًّا!

قبيل غزو ألمانيا للاتحاد السوفيتيّ، أرسل سورج رسالةً مشفَّرةً إلى ستالين، يخبرهُ فيها أنّ أدولف هتلر سيغزو موسكو، لكنّ ستالين استشاط غضبًا، ولم يصدِّق سورج، قائلًا في حنق: «هذا الوغد يُنشئ المصانع والمواخير في اليابان ويدّعي أنّ الهجوم الألمانيّ سيبدأ في 22 يونيو، وتريدون مني تصديقه؟

لكنَّ خطأ ستالين أنَّهُ لم يُصدِّق سورج، فقد اجتاحت قوَّات الفيرماخت (القوات المسلحة النازيَّة) روسيا، كانت البداية بـ 4.5 مليون جندي من قوَّات المحور.

دُمِّر في اليوم الأوَّل، ما لا يقل عن 1500 طائرة روسيَّة، بعد سنتين من الاجتياح كان عدد الأسرى الروس ثلاثة ملايين جندي، ولم يتبقّ سوى 90 ألف جندي للدفاع عن العاصمة موسكو.

هنا كان تدخُّل سورج الخطير الذي أنقذ ستالين والاتحاد السوفيتي.

في يونيو 1941، وبينما يعاني السوفييت، والعاصمة موسكو ستقع في يدّ الفيرماخت خلال فترة قصيرة، أرسل سورج معلوماته الدقيقة التي وضَّح فيها أنّ اليابان لن تدخل الحرب مع ألمانيا.

ولن تهاجم الاتحاد السوفيتي إلا بعد تحقُّق ثلاثة شروط:

- استيلاء قوَّات المحور على موسكو.
- وصول حجم قوات «جيش كوانتونغ – الجيش الإمبراطوري الياباني» ثلاثة أضعاف الجيش الأحمر في الشرق الأقصى.
- اندلاع الحرب الأهليَّة في سيبيريا.

بالطبع كان ستالين قد تعلَّم الدرس: أن يثق في قدرات سورج ومعلوماته.

كانت القوات اليابانية في منشوريا، وقوَّاتٌ هائلة تابعة للاتحاد السوفيتي في سيبيريا، تخشى دخول اليابان الحرب، حين جاءت المعلومة لستالين، تنفَّسَ الصعداء، وسحب في هدوءٍ وصمت 18 تشكيلًا عسكريًّا، و1700 دبابة، وأكثر من 1500 طائرة، ليحمي موسكو.

واستطاعت القوات السوفيتية حينها أن تحمي موسكو من احتلال النازي، وسطَّرت القوات السوفيتيَّة أوَّل هزيمة لهتلر في الحرب، والتي غيَّرت مسار الحرب تمامًا!

المضحك في الأمر، أنّ المعلومات وصلت لسورج أيضًا عن طريق السفير الألمانيّ في اليابان، يوجين أوت.

كان يوجين حزينًا للغاية وغاضبًا، ويشكو لصديقهِ سورج كيف أنَّه فشل في إقناع اليابانيين بدخول الحرب إلى جانب قائده الفوهرر أدولف هتلر.

لم يكن من الطبيعيّ أن يظل سورج في اليابان طيلة ثماني سنوات كصحافي، دون أن تكتشف اليابان جاسوسيته الخطيرة.

ألقت اليابان القبض على سورج في 21 أكتوبر 1941 بُعيد إلقاء القبض على أحد أعضاء شبكته في اليابان، وبعد تعذيبٍ شديد اعترف بجاسوسيَّة سورج.



في البداية ظنَّت اليابان أنَّهُ جاسوس لألمانيا، لكنّ ألمانيا نفت علاقتها به، تحتَ التعذيب اعترفَ سورج بجاسوسيته للاتحاد السوفيتيّ، استشاط السفير الألمانيّ لدى طوكيو غضبًا، فصديقُهُ متَّهمٌ بالجاسوسيَّة، ولم يكن يعلم أنّ صديقَهُ المخلص كان يخون بلاده تمامًا لصالح السوفييت، ويخون صداقتهما أيضًا لصالحِ شهوته، ويزور سرير يوجين أوت.

كان سورج متأكّدًا أنّ زعيمهُ ستالين لن يتركهُ في يد اليابانيين، كان واثقًا أنه سيبادله ببعض الجواسيس أو الأسرى لديه، لكنّ سورج كان مخطئًا، لقد خانتهُ حاسته الجاسوسيَّة هذه المرَّة، فستالين لم يكن ليترك لأحدٍ فضلًا عليه، ولم يكن ليترك شاهدًا على خطئه الذي لا يغتفر (أنه لم يصدق معلومات سورج عن هجوم هتلر) حيًّا.

أعلن الاتحاد السوفيتيّ أن لا علاقة تربطه بسورج. ليظلّ سورج في سجن «سوجامو» حتَّى 7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1944، ويتمّ إعدامهُ، ليس كشخصٍ عاديّ، وإنما كشخصٍ استطاعَ أن يتسبب في هزيمة القوَّة الأعظم في العالم.

وفي رواية أخرى، أنه تم الكشف عن حقيقة نشاط سورج في اليابان بسبب خطأ ساذج حيث قام بتمزيق ورقة تحتوي على أحد المعلومات الاستخباراتية بدلًا من حرقها، تسبب الأمر في الكشف عن هويته وحكم عليه بالإعدام في اليابان عام 1944.

*****



هبه سليم:

هبة سليم أول جاسوسة عربية استُغلت وعملت لصالح الموساد في عام 1973.

حصلت هبة على الثانوية العامة، ثم ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي هناك، وجمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهود.

أعلنت هبة صراحة في شقة البولندية أنها تكره الحرب، وتتمنى لو أن السلام عم المنطقة، وفي زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية في إسرائيل، وأسلوب الحياة في "الكيبوتس" وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشًا آدمية كما يصورهم الإعلام العربي، بل هم أناس على درجة عالية من التحضر والديموقراطية.

وعلى مدى لقاءات طويلة مع الشباب اليهودي والامتزاج بهم بدعوى الحرية التي تشمل الفكر والسلوك، استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية، أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جدًا وأقوى من كل العرب، وهذا ما جعلها تفكر في خدمة إسرائيل رافضة المال الذي قدموه لها.

نجحت أخطر جاسوسة تم تجنيدها من قبل الموساد في تجنيد المقدم مهندس صاعقة فاروق عبد الحميد الفقي الذي كان يشغل منصب مدير مكتب قائد سلاح الصاعقة، فبعد أن تعرفت على ضابط الموساد في منزل صديقتها البولندية أبلغته أنها على معرفة بالفقي.



وكان الفقي الذي كان يلتقى بـ"هبة" في نادي الجزيرة عاشقًا لها، أما هي فكانت تعامله بمنتهى القسوة ولا تشعر اتجاهه بأي مشاعر، ولكن حين جندها الموساد قررت أن توافق على خطوبتها من الفقي حتى تستفيد منه بالمعلومات المهمة، وبالفعل تمكنت "سليم" من الحصول على معلومات في غاية الأهمية من الفقي، وأبلغت بها إسرائيل.

وبدأت تدريجيًا تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية، وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التي وصلت من روسيا، فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم في أدق الأسرار العسكرية، ويمدها بالخرائط زيادة في شرح التفاصيل.

وسقط ضابط الجيش المصري الذي لم يعد يملك عقلًا ليفكر، بل يملك طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته في بئر الخيانة، ليصير في النهاية عميلًا للموساد تمكن من تسريب وثائق وخرائط عسكرية موضحًا عليها منصات الصواريخ "سام 6" المضادة للطائرات التي كانت القوات المسلحة تسعى ليل نهار لنصبها لحماية مصر من غارات العمق الإسرائيلية.

كان جهاز المخابرات المصري يبحث عن حل للغز الكبير، والذي كان يتمثل في تدمير مواقع الصواريخ الجديدة أولًا بأول بواسطة الطيران "الإسرائيلي"، وحتى قبل أن يجف البناء وكانت المعلومات كلها تشير إلى وجود "عميل عسكري" يقوم بتسريب معلومات سرية جدًا إلى "إسرائيل".

ونجحت المخابرات المصرية في كشف أمر الضابط الخائن وتم القبض عليه، وفي التحقيق معه اعترف الضابط الخائن تفصيليًا بأن خطيبته جندته بعد قضاء ليلة حمراء معها، وأنه رغم اطلاعه على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنها ستفيد العدو.

وفي سرية تامة قدم سريعًا للمحاكمة العسكرية التي أدانته بالإعدام رميًا بالرصاص، ولكن وجدت المخابرات المصرية بعد دراسة الأمر بعناية أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقة الكاملة التي يضعها الإسرائيليون في هذا الثنائي.

وذلك بأن يستمر في نشاطه كالمعتاد خاصة والفتاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

وفي خطة بارعة من المخابرات الحربية، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجال المخابرات المصرية تتولى إدارة الجاسوس وتوجيهه لإرسال معلومات لإسرائيل هي بالطبع من صنع المخابرات الحربية، وتم توظيفها بدقة متناهية في تحقيق المخطط للخداع.

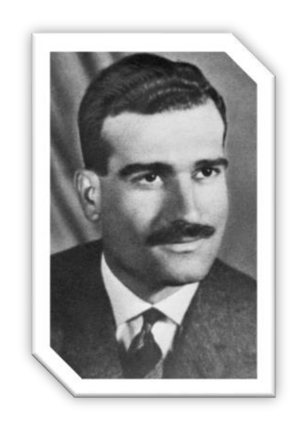
وبعد أن بلعت القيادة الإسرائيلية الطعم ووثقت بخطة الخداع المصرية تقرر استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء عبر خطة مخابراتية، لكي لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل.

مثلت هبة أمام القضاء المصري ليصدُر بحقها حكم بالإعدام شنقا بعد محاكمة اعترفت أمامها بجريمتها.

لقد بكت جولدا مائير حزنًا على مصير هبة التي وصفتها بأنها "قدمت لإسرائيل أكثر مما قدم زعماء إسرائيل"

وعندما جاء هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ليرجو السادات تخفيف الحكم عليها، كانت هبة تقبع في زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد حانت بزيارة الوزير الأمريكي، حيث تنبه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة في طريق السلام، فأمر بإعدامها فورًا، ليسدل الستار على قصة الجاسوسة.

******



إيلي كوهين:

(26 ديسمبر 1924 - 18 مايو 1965)

إلياهو بن شاؤول كوهين، يهودي مصري الأصل، ولد بالإسكندرية التي هاجر إليها أحد أجداده سنة 1924.

ومن المعروف أنه عمل في مجال التجسس في الفترة 1961–1965 في سوريا، حيث أقام علاقات وثيقة مع التسلسل الهرمي السياسي والعسكري وأصبح المستشار الأول لوزير الدفاع.

وكشفت سلطات مكافحة التجسس السورية في نهاية المطاف عن مؤامرة التجسس، واعتقلت وأدانت كوهين بموجب القانون العسكري قبل الحرب، وحكمت عليه بالإعدام في 1965.

وقيل ان المعلومات الاستخبارية التي جمعها قبل إلقاء القبض عليه كانت عاملًا هامًا في نجاح إسرائيل في حرب 1967.

بدأ نشاطه السياسي بتأسيس منظمة الشباب اليهودي الصهيوني في الإسكندرية عام 1944، تخلف عن الهجرة للأراضي المحتلة "إسرائيل" في أعقاب حرب 1948 بصحبة أسرته بسبب عمله تحت قيادة "إبراهام دار" أحد كبار الجواسيس الإسرائيليين الذي جاء إلى مصر لمساعدة اليهود على الهجرة وتجنيد العملاء تحت اسم "جون دارلينج".

وشكّل دار شبكةً للمخابرات الإسرائيلية بمصر نفذت سلسلة من التفجيرات ببعض المنشآت الأمريكية في القاهرة والإسكندرية بمشاركة كوهين، قبل أن يتم الكشف عن الشبكة في قضية عرفت باسم "قضية لافون"، خرج بعدها إلى إسرائيل والتحق بالعمل في الموساد قبل أن يعود إلى مصر ويتم اعتقاله عام 1956.

تم الإفراج عن كوهين وهاجر مرة أخرى إلى إسرائيل حيث جرت عملية إعادة تدريبه وتأهيله وإرساله إلى دمشق بعد تدربيه على اللهجة السورية وزرعه باسم مستعار هو كامل أمين ثابت، حيث تم ترتيب سفره إلى الأرجنتين وزرعه لمدة عام كامل ليعمل تاجرًا ورجل أعمال وسط الجالية السورية ويوطد علاقته بالجالية السورية حتى موعد إرساله إلى سوريا في عام 1962، بعد أن أعلن عن تصفية أعماله بسبب حنينه للعودة إلى وطنه، حيث نجح خلال فترة قصيرة في إقامة شبكة واسعة من العلاقات المهمة مع ضباط الجيش والمسؤولين العسكريين.

وكان من المعتاد أن يزور أصدقاءه في مقار عملهم، وكانوا يتحدثون معه بحرية عن تكتيكاتهم في حالة نشوب الحرب مع إسرائيل ويجيبون على أدق الأسئلة المتعلقة بالتسليح.

حتى كان يتم اصطحابه في مواقع التحصينات العسكرية في هضبة الجولان وقد تمكن من تصوير جميع التحصينات بواسطة آلة تصوير دقيقة مثبتة في ساعة يده، كما كان كوهين يمد إسرائيل بأحد المعلومات حول تسليح الجيش السوري والتي كان يحصل عليها من أصدقائه.

تختلف الروايات حول طريقة كشف هوية إيلي كوهين، الرواية السورية تعزوها إلى الصدفة حيث تم رصد موجات إرسال من بيته أثناء توجيه أحد رسائله والذي تصادف مع مرور سيارة رصد الاتصالات الخارجية التابعة للأمن السوري، الرواية المصرية تعيد الفضل في الكشف عن كوهين إلى التنسيق بين المخابرات المصرية والسورية ووصول بعض صور كوهين بالصدفة إلى المخابرات المصرية والتي نجحت في التعرف عليه بحكم وجود نشاط تجسس سابق له في مصر.

بعض الروايات تعيد الفضل في الكشف على كوهين إلى المخابرات السوفييتية، خلاصة الأمر أن كوهين تم الكشف عنه في عام 1965 بعد 4 سنوات من النشاط حيث تم إعدامه.

وأيضا في الرواية المصرية، في أكتوبر من عام 1964م، كان رفعت الجمال "رأفت الهجان" في رحلة عمل للاتفاق على أفواج سياحية في روما وفق تعليمات المخابرات المصرية، وفى الشركة السياحية وجد بعض المجلات والصحف ووقعت عيناه على صورة إيلي كوهين، وقرأ المكتوب أسفل الصورة: "الفريق أول على عامر والوفد المرافق له بصحبة القادة العسكريين في سوريا والقيادي البارز بحزب البعث العربي الاشتراكي كامل أمين ثابت".

وكان كامل هذا هو إيلي كوهين الذي قضى معه سهرة حتى الفجر في إسرائيل وتجمعت الخيوط في عقله وحصل على نسخة من هذه الجريدة اللبنانية من محل بيع الصحف بالفندق، وفى المساء التقى مع قلب الأسد محمد نسيم رجل المهام الصعبة في المخابرات المصرية وأخبره بالتفاصيل.

وقال محمد نسيم رجل المخابرات المصرية لرأفت الهجان: "لو صدقت توقعاتك يا رفعت لسجلنا هذا باسمك ضمن الأعمال النادرة في ملفات المخابرات المصرية"، وعقب هذا اللقاء طار رجال المخابرات المصرية شرقا وغربا للتأكد من المعلومة.

وفى مكتب مدير المخابرات في ذلك الوقت صلاح نصر، تجمعت الحقائق وقابل مدير المخابرات الرئيس جمال عبد الناصر، ثم طار النقيب حسين تمراز من المخابرات المصرية في الليلة نفسها على متن طائرة خاصة إلى دمشق حاملا ملفا ضخما وخاصا إلى الرئيس السوري أمين الحافظ.

تم القبض على إيلي كوهين وسط دهشة الجميع وأعدم في سوريا في 18 مايو عام 1965م، ويقول رفعت الجمال: "حضرت جنازته في إسرائيل بين عناصر الموساد بعد أن أعلنت الصحف العربية نبأ القبض عليه وشاركت الأصدقاء الإسرائيليين الحزن عليه وألمهم لسقوط نجمنا الأسطوري إيلي كوهين"،

وتشير الوثائق والمعلومات أن رواية رأفت الهجان هي الرواية الأكثر قربا من المنطق والأكثر صدقا في عملية الكشف عن الجاسوس الإسرائيلي الأكبر إيلي كوهين.

******



أمينة المفتي:

ولدت أمينة داود المفتي في عمان عام 1939 لأسرة شركسية مسلمة، هاجرت إلى الأردن منذ سنوات طويلة، والدها تاجر مجوهرات ثري، وعمها لواء في البلاط الملكي، أما أمها فكانت سيدة مثقفة تجيد لغات عدة، وذات علاقات قوية بسيدات المجتمع الراقي. كانت أمينة أصغر أخواتها، تميزت بذكاء غير عادي وطموحات كبيرة، وكانت على رغم تقاليد أسرتها المحافظة، تسخر من تقاليد الشرق وقيوده وتحلم بالحب والانطلاق.

عام 1957، التحقت أمينة بجامعة فيينا وأقامت في المنزل رقم 56 شارع يوهان شتراوس أسابيع عدة، قبلما يفتح القسم الداخلي أبوابه لإقامة الطالبات المغتربات.

جمعتها الحجرة بطالبة في نهائي الطب تدعى جولي باتريك من جوهانسبرغ، ذات خبرة كبيرة بالحياة الأوروبية. علّمتها جولي التدخين وحذرتها من العلاقات مع الشباب حيث الحمل والإجهاض، وحببتها بالفتيات لتكون في مأمن، فشذّت أمينة، وتدريجياً أدمنت الفعل الخبيث حتى الثمالة، فقد رأت فيه انطلاقتها وتحررها من قيود الشرق.

مرت سنوات الدراسة في جامعة فيينا، وحصلت أمينة على بكالوريوس علم النفس الطبي وعادت في أغسطس 1961 إلى عمان مكرهة، تضج بالمعاندة والنفور، وتحمل في داخلها طبائع أخرى وأحاسيس مختلفة وآلام الهجرة الى القيود والرقابة.

في غمرة معاناتها وكآبتها، تذكرت حبيبها الأول، الشاب الفلسطيني «بسام»، فجابت عمان طولاً وعرضاً بحثاً عنه، وهزتها الحقيقة المرة عندما علمت بزواجه، حاصرتها الهموم، ولم تجد حلاً لأزمتها إلا السفر ثانية إلى النمسا، بدعوى استكمال دراستها العليا لنيل الدكتوراه، عازمة على ألا تعود إلى الشرق أبداً.

كان عمرها حينما عادت مرة أخرى إلى النمسا تجاوز الثالثة والعشرين، جذبتها حياة الحرية والانطلاق في أوروبا، وسلكت مسلك فتياتها في العمل والاعتماد على النفس، غير عابئة بما كان يرسله لها والدها من مصروف شهري، فعملت بورشة صغيرة للعب الأطفال، وساقت اليها الصدفة فتاة يهودية تدعى سارة بيراد، شاركتها العمل والسكن والشذوذ، فالتصقت بها أمينة، وسرعان ما انخرطت معها في تيار الهيبيز، الذي انتشرت جماعاته في أوروبا في تلك الحقبة، وعرف في الشرق باسم «الخنافس».

وذات مرة قامت بزيارة لمنزل أسرة صديقتها اليهودية سارة، دق قلبها فجأة بقوة لم تستطع دفعها، فقد كان موشيه – شقيق سارة الأكبر – شاباً لا يقاوم، ساحر النظرات والكلام، حيوي الشباب، ذا طلعة جذابة.

عرفت أمينة أنه طيار عسكري برتبة نقيب، ويكبرها بنحو سبع سنوات تقريباً، شاعري، مهووس بموتسارت وبيزيه.

في نزهة معه، عرفت بين أحضانه معنى المتعة الحقيقية، لقد كانت غبية حينما جرت وراء المتعة مع مثيلاتها، فغرقت معه في الحب، على رغم أنها مسلمة وهو يهودي، وتعددت لقاءاتهما المحرمة وتحولت أمينة بين يديه إلى امرأة لا تدخر وسعاً في إسعاده، وتغلبت على ضميرها قدر استطاعتها وهي تدعي لنفسها الحق في أن تعيش، تحيا، تجرب، وتمارس الحب بلا ندم في بلاد لا تعترف بالعذرية والعفاف.

مرت خمس سنوات في انحلال وتردٍّ، متناسية سبب مغادرتها وطنها إلى فيينا، وبعد جهد ساعدها موشيه في الحصول على شهادة دكتوراه مزورة في علم النفس المرضي، وهو فرع من علم النفس الطبي، وعادت أدراجها إلى الأردن في سبتمبر 1966 ليستقبلها الأهل في حفاوة وفخر، ويطالبونها بإعلان موافقتها على الزواج من ابن عمها، لكنها تطلب منهم إمهالها حتى تفتتح مستشفاها الخاص في عمان.

سافرت أمينة إلى النمسا ناقمة على كل شيء في بلدها، وأسرعت إلى موشيه يعاودها الحنين، غير عابئة بانكسار وطنها العربي بنكسة 1967، فكانت تعلن شماتتها بلا حرج أو خجل، إذ طفحت منها الكراهية لكل ما هو عربي، وما يمت للعرب بصلة.

في جلسة خلوية تفيض بالمشاعر، فاجأها موشيه بطلب زواجه منها، فلم تتردد، لكنه أكد لها أنه يريده زواجًا رسميًا يتم في المعبد اليهودي، فلم ترفض.

في معبد شيمودت، اعتنقت أمينة اليهودية، وتزوجت من موشيه زواجاً محرماً شرعاً، واستبدلت اسمها بالاسم اليهودي الجديد «آني موشيه بيراد».

في إسرائيل في صيف 1972، قرأت أمينة إعلاناً غريباً في إحدى الصحف، تطلب فيه إسرائيل متطوعين من يهود أوروبا للالتحاق بجيش الدفاع، مقابل مرتبات ومزايا عدة مغرية، تصورت أمينة أنها عثرت على الحل المثالي لمعاناتها، وأخذت تعد العدة لموشيه لإقناعه بالفكرة، خصوصا أنه سيحصل على جواز سفر إسرائيلي، ومسكن في إسرائيل، وأنها بمرافقته إلى هناك ستودّع الخوف إلى الأبد.

لكن موشيه الذي كان يسعى للعمل في إحدى شركات الطيران المدنية عارض الفكرة ورفضها، بدعوة أن إسرائيل والعرب في حالة حرب لن تهدأ حتى تشتعل، طالما أن هناك أرضاً محتلة وشعوباً عربية ثائرة، لكن مع إلحاحها المتواصل ليل نهار، تقدم موشيه بأوراق إلى السفارة الإسرائيلية، وفي نوفمبر 1972 كانا يطيران بطائرة العال إلى إسرائيل.

بعد أيام قليلة، استُدعيت أمينة إلى إحدى الجهات الأمنية، حيث سئلت مئات الأسئلة عن نشأتها في الأردن، عائلتها، وظائف أقاربها ومعارفها، كيفية تعارفها وموشيه وزواجهما، فأجابت في سرد طويل. سئلت أيضاً عما تمثله إسرائيل بوجدانها، وعن مشاعرها تجاه الأردن والفلسطينيين، فأقرت بأنها تكره منظمة التحرير وكل المنظمات الفلسطينية، وأن الملك حسين أخطأ كثيراً عندما لم يقتلهم جميعاً في الأردن، فهم يكرهون الأقلية

الشركسية في الأردن، ضربوا بيوتها وأتلفوا ممتلكاتها، ظناً منهم أن عمها – اللواء بالبلاط الملكي – كان وراء مذابح سبتمبر 1971، وأحد مرتكبيها.

خضع موشيه لتدريبات الاستطلاع الجوي، بعدما تقلد رتبة رائد طيار في سلاح الجو الإسرائيلي. في آخر يناير 1973 طار بطائرته الـ «سكاي هوك» باتجاه الجبهة السورية، فأسقطته مدفعية السوريين في أول طلعة استطلاع له واعتبر مفقوداً منذ تلك اللحظة، لأن سورية لم تعلن عن أسر الطيار الإسرائيلي كما كان يحدث، لكنها أعلنت أن الطائرة انفجرت في الجو وقائدها في داخلها.

لم تصدق أمينة الخبر، ولأيام طويلة ظلت تصرخ صرخات هستيرية لا تتوقف، وفي عيادة «كوبات حوليم هستدروت» للأعصاب في ريشون لتسيون، احتبس صوتها، أو لنقل إن صدمة الفاجعة ألجمت لسانها فصمتت.

وبعد شهر ونصف الشهر تكلمت، ونطقت قائلة بأنها تشكك في البيان السوري، وبأن موشيه لا يزال حياً، متخفياً بين الحشائش والمغارات، فهو طيار ماهر وقدراته عالية جداً.

وبجواز سفرها الأردني طارت على أول رحلة إلى بيروت ونزلت في أحد الفنادق...

في رحلة تجوالها، تعرفت الى سيدة لبنانية من أصل أردني تدعى خديجة زهران، تمتلك وتدير محلاً للملابس الجاهزة، فاشترت منها ملابس بمبلغ كبير لتتقرب إليها، ودلتها خديجة على شقة صغيرة في حي عين الرمانة، انطلقت منها للبحث عن زوجها.

بعد رحلات عدة بين بيروت ودمشق، فشلت أمينة في الوصول إلى ما يطمئنها، وتأكد لديها أن موشيه قُتل لا محالة، فغادرت بيروت إلى فيينا تخنقها عبرات الأسى والغربة.

في شقتها في فيينا، أيقظها اتصال هاتفي من تل أبيب، وفي اليوم التالي استقبلت ثلاثة رجال عرفت منهم أنهم ضباط إسرائيليون، مهمتهم إنهاء إجراءات الإرث الخاص بها، من دون إثارة مشاكل مع أسرة زوجها أو الجهات الرسمية سواء في النمسا، أو في إسرائيل.

كان ميراثها وحدها مع التعويض يربو على النصف مليون دولار، مع الشقة الأنيقة، وضمانات حماية وأمن فوق العادة، وكان المطلوب منها أن تتعاون معهم لقاء ذلك وتنفذ ما سيُطلب منها بلا تردد، فبمقاييس المخابرات، تعد أمينة كنزاً ثميناً لا يقدر بمال، فهي امرأة عربية فقدت وطنها وأهلها، وتعيش في وضع نفسي سيئ مليء بالخوف، ولا مأوى لها سوى في إسرائيل، وكان لا بد من استغلالها واستقطابها، بقليل من بث الكراهية في نفسها لهؤلاء العرب الذين قتلوا زوجها وقد كان يمثل لها الأمن والحماية، وبالضرورة هي بحاجة ماسة إليهما من بعده.

كانت رؤيتهم على صواب، فأمينة التي تحمل الجنسية الأردنية والنمساوية والإسرائيلية، لم تكن بحاجة إلى كل هذا التخطيط والتمويه لجرّها إلى عش الجاسوسية والعمل لصالح الموساد ضد وطنها وشعبها.

إنها غارقة في الضعف، اليأس، والضياع، وبعدما باعت الدين والوطن فهي لا تملك أثمن منهما لتبيعه، لم تعر للشرف انتباهاً، خلعت ثوب الشرق المحتشم وفرّطت في عقيدتها وعروبتها وعفتها، لذا لم يكن من الصعب على الضباط الثلاثة إخضاعها، مستغلين ضعفها الإنساني ووحشتها، عازفين على أوتار كراهيتها للعرب وللفلسطينيين على وجه الخصوص.

لا تقر الجاسوسية في عرف أجهزة المخابرات بمبدأ الرحمة، ولا تستجيب بأية حال لنداءات الضمير، إنه عالم يفتقد العواطف، ولا وجود للمشاعر تحت سمائه.

هكذا سقطت أمينة في مصيدة الجاسوسية وأسلمت مقودها للضباط الثلاثة، الذين أقاموا لها دورة تدريبية مكثفة استغرقت شهراً وأربعة أيام في شقتها في فيينا، تعلمت أثناءها أساليب التجسس المختلفة من تصوير، تشفير، التقاط أخبار، كيفية الالتزام بالحس الأمني، والتمييز بين الأسلحة.

دربوها أيضاً على كيفية تحميض الأفلام، الهرب من المراقبة، واستخدام المسدس، واستقدموا لها من إسرائيل خبيراً في تقوية الذاكرة وتخزين المعلومات والأرقام من دون نسيانها.

كانوا يعرضون عليها مشهداً من فيلم سينمائي، ويطلبون منها الإجابة عن أمور دقيقة فيه مثل: كم طبق كان على المائدة؟ ما لون ستائر الشباك؟ كم لمبة في النجفة؟ كم عدد درجات السلم؟ أجادت آني موشيه دورتها الأولى في التجسس وأصبحت أكثر إصراراً على الانتقام والتحدي، وعمل المستحيل للثأر لزوجها الذي فُقد بالقرب من الجولان والجنوب اللبناني، إنها تريد تأكيد حبها لموشيه، من خلال حبها للعمل مع إسرائيل ضد العرب.

غادرت أمينة فيينا إلى بيروت هذه المرة، لا للبحث عن زوجها، وإنما للانتقام له، مهمتها المحددة تقصّي أخبار رجال المنظمات الفلسطينية ورجال المقاومة الذين يؤرقون أمن إسرائيل ويحيلون ليلها إلى نهار لشدة القصف والتفجيرات الفدائية كانت أيضاً مكلّفة بالتحري عن مراكز إقامة قادة المقاومة والطرق التي يسلكها الفدائيون للتسلل إلى الأرض المحتلة والتغلغل داخلهم لمعرفة أعداد الفدائيين، تدريبهم، تسليحهم ومدى مهارتهم في التخفي والمناورة، ومخازن الأسلحة والإعاشة.

في بيروت.

استأجرت أمينة أو «آني موشيه» شقة في إحدى بنايات الروشة، أجمل مناطق بيروت، ومن شرفة شقتها كان أمامها البحر اللانهائي، وعلى بعد خطوات منها يقع مقهى الدولشي فيتا أشهر مقاهي بيروت، حيث المكان المفضّل للفنانين والمثقفين والجواسيس والسياح.

كان الأمر الوحيد الذي يضايقها، انقطاع الحرارة عن الهاتف، فقصدت صديقتها الأردنية خديجة زهران، وطلبت منها المساعدة.

اتصلت خديجة في الحال بمانويل عساف موظف التلفونات، الذي ذهب بنفسه إلى أمينة في اليوم التالي، ليؤكد لها أن المنطقة تعاني من بعض الأعطال بسبب تجديدات في الشبكة، ووعدها بأنه سيسعى في القريب للتوصل إلى حل.

ولكي لا ينسى منحته جسدها أيضاً، إذ وجدت فيه صيداً سهلاً تستطيع من خلاله التوصل لهواتف وعناوين القادة الفلسطينيين، فهي باعت سابقا الدين والوطن والأهل، فلم تجد غضاضة في بيع نفسها لمانويل.

وهكذا تفعل النساء في عالم المخابرات والجاسوسية، فالجنس عندهن وسيلة فحسب لا هدف.

لم يكن لهذا العامل فائدة اذ انه مجرد فني، لكن الامر بيد رئيسه بالعمل "مارون الحايك"، الحايك متعدد العلاقات النسائية، يسعى خلف نزواته ومغامراته، منشغل بالتجسس على المحادثات الهاتفية بين نساء المدينة، كان يجيب عن كل أسئلتها، وأطلعها – بعد لقاءات عدة على التلفونات السرية للمنظمات الفلسطينية، وزعماء الجبهات وعناوين إقامتهم في حي الريحانة الشهير.

بواسطة صندوق بريد ميت، صبت أمينة كل ما تفوه به الحايك في خطاب من صفحات عدة، تسلمه عملاء الموساد في بيروت لتأتيها الأوامر بعد ذلك بالتحرك من دون انتظار....

فالمطلوب منها هو الحصول على القوائم السرية لرجال المخابرات الفلسطينية في أوروبا وصفاتهم، ولن يتاح لها ذلك إلا من خلال مكتب ياسر عرفات شخصياً، أو مكتب رئيس جهاز المخابرات علي حسن سلامة المطارد في كل مكان في العالم، والذي أطلقت عليه غولدا مائير لقب «الأمير الأحمر»، لأنه بطل عملية ميونيخ التي قتل فيها أحد عشر إسرائيلياً.

مساء 22 يوليو 1973، رن الهاتف في شقة أمينة المفتي، وكان على الطرف الآخر مارون الحايك، الذي أسر إليها ببضع كلمات ألجمتها، فوضعت السماعة بتوتّر وأسرعت تفتح التلفزيون، لقد صدمها المذيع وهو يعلن نبأ اعتقال ستة من رجال الموساد في أوسلو، بينهم امرأة، بتهمة قتل «غرسون» مغربي بالرصاص، ظنوا أنه الفلسطيني علي حسن سلامة، وقد اعترف المعتقلون بأنهم ينتمون إلى الموساد، ويشكلون فيما بينهم فريقاً للقتل اسمه الرمح،

وجاؤوا خصيصاً من إسرائيل لتعقّب سلامة واغتياله.
ارتجّت أمينة وتملّكها الهلع على مصيرها، وتساءلت:
لماذا يتعقبون سلامة لاغتياله بينما طلبوا منها خلاف ذلك؟

كانت اللعبة أكبر بكثير من تفكيرها، فأمور السياسة والمخابرات تتشكل وفقاً لمعايير أخرى وحسابات معقدة، وللمرة الأولى منذ فقدت زوجها موشيه، تشعر برغبة أكيدة في الاستمتاع بالحياة، فأسرعت في اليوم التالي، برفقة الحايك إلى فندق الكورال بيتش، متلهفة إلى الالتقاء بسلامة.

أخذتها المفاجأة عندما أشار الحايك ناحية حوض السباحة قائلاً لها: أنظري.. هذا علي حسن سلامة.

طلبت من مارون الحايك أن يزورها في شقتها في بيروت، فأسرع إليها يمنّي نفسه بليلة ساخنة، لكنه ما إن دلف إلى الصالون، حتى وقف مذهولاً، وقد تجمدت الدماء في عروقه وتعلقت عيناه الجاحظتان بنجمة داوود الزرقاء على الحائط.

صارحت أمينة الحايك بكل شيء، وأنها عميلة للموساد، وأنه شريكها، وأطلعته على صور فاضحة تجمعهما، وأسمعته صوته وهو يمليها أرقام تلفونات رجال المقاومة، وانتهت الجلسة بأن وقّع على إقرار بالتعاون مع الموساد، وطلبت منه أن تدخل الى غرفة السنترال المركزي لتستمع بنفسها للمكالمات بين القادة الفلسطينيين، وهو مطلوب منه أن يفعل ذلك ويعلم بمواعيد العمليات الفدائية وأماكنها داخل إسرائيل.

أسفرت تلك العملية عن فائدة عظيمة لإسرائيل، فالتجسس المستمر على مكالمات القادة وزعماء الجبهات الفلسطينية، كشف نواياهم تجاه الدولة العبرية، وخططهم الفدائية للضرب داخل الأراضي المحتلة، ولم تكن الأحاديث الهاتفية مكشوفة تماماً، يستطيع المتنصت عليها إدراك مضامينها بسهولة، إنما اعتمدت على أسلوب التمويه والشفرة الكلامية التي تتطلب مهارة عبقرية لفهمها، لكن زعماء الجبهات أحياناً كثيرة ينسون أنفسهم ويتحدثون علانية في ما بينهم صراحة، أو مع مساعديهم ظناً منهم - وهذا خطأ كبير - أن التجسس على محادثاتهم أمر مستحيل من قبل اللبنانيين...

اتصل الحايك بأمينة قبل فجر 23 مايو 1974، ففتحت على الفور جهاز اللاسلكي، وبثت إلى الموساد رسالتها الخطيرة: (آر. كيو. آر. بعد 37 دقيقة من الآن - سيهاجم ثمانية من الفدائيين المتسللين مستعمرة زرعيت تسليحهم رشاشات كلاشنكوف وقنابل 57 ملم.. شالوم) وبالفعل صدقت المعلومة تماماً، وأطبق الإسرائيليون على الفدائيين الثمانية، فقتلوا ستة منهم وأسروا اثنين.

عندما كانت أمينة تتجسس بنفسها على مكالمات القادة الفلسطينيين، اقتحمت الخط السري الخاص بمكتب جورج حبش، ولاحظت بعد مكالمات عدة له، أن هناك ترتيبات عسكرية تُعد بشكل سري، حتى انفجر الحوار ساخناً جداً بينه وبين أحد مساعديه في صيدا.

وبدا حبش منفعلاً أشد الانفعال، وهو يأمر مساعده بإتمام العملية يوم 13 يونيو. في غمرة انفعاله، نطق اسم كيبوتز شامير سهواً، لم تهمل عميلة الموساد الأمر، وأبلغت رؤساءها على الفور بما سمعته، وبعد ثلاثة أيام كان هناك خمسة من الفدائيين القتلى على مشارف قرية كيبوتز شامير، بوغتوا قبل أن يستعملوا رشاشاتهم الآلية، وفي 27 يونيو 1974 لقي ثلاثة فدائيين آخرين مصرعهم، بعدما قتلوا أربعة من الجنود الإسرائيليين في نهاريا...

هكذا كانت أخبار العمليات الفدائية تصل أولا بأول إلى إسرائيل ويتم التعامل معها قبل أن تتم....

كان سلامة شاباً خارق الذكاء، شاهد بنفسه مقتل والده بيد اليهود وهو في الخامسة عشرة من عمره، وعاش مثل آلاف الفلسطينيين في مخيم بائس يفتقر إلى المياه والكهرباء، وفي نابلس أكمل تعليمه وكان دائماً من المتفوقين، وبعدما حصل على الثانوية العامة بتفوق، حصل على منحة للدراسة بالجامعة الأميركية في بيروت، التي كانت مجتمعاً لكبار المثقفين الفلسطينيين.

وتخرج في الجامعة مهندساً ليلتقي بياسر عرفات الذي كان أسس منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد هذا اللقاء تبدلت حياته كلها، إذ شغل منصب قائد القوة 17، ثم رئيس المخابرات الفلسطينية «رصد» ورئيس العمليات في منظمة أيلول الأسود التي دوّخت إسرائيل بعملياتها الفدائية المذهلة.

استغل سلامة ذكاءه الشديد في تعقّب الخونة والجواسيس الذين يُزرعون بين صفوف المقاومة، وتمكّن من كشف عشرين منهم خلال فترة وجيزة، وحصل على دورات تدريبية على أيدي رجال المخابرات المصرية، وعشق مطاردة عملاء الموساد أينما كانوا، وأفلت مرات ومرات من محاولات فاشلة لاغتياله، وبعدما جاءه البلاغ عن وجود طبيبة عربية متطوّعة تعمل لصالح الموساد في بيروت، كانت أمامه بعد ثلاثة أيام قائمة طويلة تضم أسماء 37 طبيبة.

أربعة منهن فحسب حصلن على شهاداتهن العلمية من جامعات النمسا، وكن جميعاً آنسات إحداهن بالطبع كانت أمينة داود المفتي.

والى أن يصل التقرير الحاسم من أوروبا، أمر سلامة بوضع الممرضات الأربع تحت المراقبة الصارمة طوال الأربع والعشرين ساعة، كان السباق محموماً للوصول إلى الحقيقة بأسرع ما يمكن، وبينما الطقس مشحون بالشكوك والترقب، أحست أمينة بعيني الجاسوسة المدربة، بأن هناك عيوناً ترصدها، ولا تترك لها مساحة من الحرية لتتحرك بيسر كما اعتادت دائماً، وأول ما فكرت فيه هو التخلص من جهاز اللاسلكي، دليل الإدانة الذي سيقدمها إلى حبل المشنقة...

فبثت رسالتها الأخيرة إلى الموساد: (آر. كيو. أر. هناك من يراقبني ليل نهار منذ الأمس.. أنا خائفة ومرتبكة.. سأموت رعباً.. أفيدوني.. شالوم).

وبعد أقل من نصف الساعة جاءها الرد يقول: (ضعي الجهاز بسلة قمامة الشقة العلوية.. احرقي الشفرة.. غادري بيروت بهدوء إلى دمشق بطريق البر.. ستجدين رسالة بمقهى الشام)....

تنفست أمينة الصعداء، وشرعت فوراً في تنفيذ أوامر رؤسائها.

أخذت أمينة حقيبة يدها الصغيرة وغادرت شقتها، لتدور بعدها في شوارع بيروت أشرس عملية هروب ومطاردة بين الجاسوسة الخائفة ومطارديها، وفي موقف السيارات المتجهة إلى دمشق اعتقدت بأنها أفلتت من المراقبة، حتى إذا ما صعدت إلى الباص واطمأنت في مقعدها.

فوجئت برجلي أمن يقفان إلى جوارها، فألجمها الخوف و إنخرست، واعتقدت بأنها النهاية الحتمية لمشوار خيانتها، فقررت بألا تموت على أيدي الفلسطينيين، وفي تصرّف لاشعوري مدت أصابعها تبحث عن كبسولة سم السيانيد بين خصلات شعرها، لكن أيدي رجلي الأمن كانت الأسرع..

إذ انقضت عليها كما تنقض الكوبرا على فريستها، واقتيدت إلى سيارة بيجو استيشن مفتوحة الأبواب كانت تنتظر خلف الباص، يقف إلى جوارها رجلان آخران جامدا الملامح، وقبلما تبلغ أمينة البيجو فشلت ساقاها في حملها، فاضطر الرجلان إلى رفعها عن الأرض رفعاً، وألقيا بها إلى داخل السيارة التي انطلقت كالريح إلى حي الفكهاني، تسبقها سيارة أودي - 80 - إل إس تقل أربعة رجال مدججين بالسلاح.

أمام أحد المباني بالقرب من المدينة الرياضية، سحب الرجال العميلة المغماة إلى الداخل، حيث أودعت في غرفة ضيّقة تحت الأرض، تكبّل يديها من الخلف سلسلة حديدية طويلة ربطت إلى الحائط...

لم يكن لدى المخابرات الفلسطينية، حتى وهم يراقبونها، دليل واحد ضدها، فالتقرير لم يصل بعد من أوروبا ليؤكد براءتها أو تورّطها، لكن حينما أمسك رجال الأمن بها كانت ملامحها كلها تنطق بالخوف وتضج بالرعب.

ولأنهم اعتادوا تلك الملامح التي ترتسم عادة على وجوه الخونة، أيقنوا بأن الأمر خطير جدًا، وأن الطبيبة المتطوّعة متورّطة في جريمة كبرى، وتحولت شكوك رجال الأمن الى يقين مؤكد بعدما تعرضت المادة السائلة بالكبسولة للتحليل، واتضح أنها سم السيانيد الذي تكفي نقطة منه لقتل فيل بالغ.

كان لا بد من ترك أمينة هكذا لأيام عدة من دون استجواب، حتى تنهار إرادتها إلى الحضيض من ناحية، ولمحاولة امتلاك أدلة مادية من ناحية أخرى، ثم قام فريق متخصص بتفتيش شقتها تفتيشاً غاية في الدقة، ولمرات عدة فشل في العثور على دليل يدينها، فالعميلة المدرّبة وعلى رغم خوفها الشديد، وجدت أمامها الفرصة الطويلة لإزالة أي آثار أو أدلة قد تقودها إلى الموت، ولم تترك خلفها سوى المصحف الشريف وقد انتزعت من

منتصفه صفحات عدة، هي في مجملها كل سورة «بني إسرائيل»، وصفحة ونصف الصفحة من سورة «الكهف»، وكان هذا الأمر يمثل لغزّا محيراً لرجال «رصد».

كان جهاز الأمن والمخابرات «رصد» يعمل في تلك الفترة تحت قيادة أبو إياد «صلاح خلف»، الأب الروحي للمخابرات الفلسطينية ولمنظمة أيلول الأسود، برئاسة علي حسن سلامة رئيس العمليات والدينامو المحرك والعبقري الفذ، ويعد الجهاز أكثر العناصر المكونة سرية داخل منظمة التحرير الفلسطينية، فهو جهاز الاستخبارات الأولية وعمليات مكافحة الجاسوسية، وفيه وحدة سرية للعمليات الخاصة، وله مكاتب في كل من لبنان ومصر والأردن والمملكة العربية السعودية والكويت وسورية، ويصعب تقدير عدد أعضائه على وجه الدقة.

كان أبو إياد معلم الجواسيس الأول في منظمة التحرير الفلسطينية، والمسؤول عن أمنها وجهازها السري، وما إن وُضع أمامه تقرير كامل عن أمينة المفتي، قال لسلامة: يجب ألا نعاقب امرأة عربية من دون أدلة قطعية قوية تؤكد إدانتها، فلننتظر تقرير رجالنا في أوروبا، وحتى يصل التقرير فلا عقاب ولا استجواب.

كان رجال المخابرات الفلسطينية في أوروبا يلهثون خلف الشاب الفلسطيني العابث، يرافقهم الشاب الآخر صاحب البلاغ، والذي استقدموه من فرانكفورت رأساً إلى فيينا، فهو الوحيد الذي يمكنه التعرف إليه بسهولة. هكذا جابوا شوارع فيينا وحدائقها ومواخيرها من دون جدوى، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته، ولم يكن أمام الرجال إلا طريقة واحدة - غاية في الخطورة - لاستجلاء الحقيقة من مصادرها الرسمية، وهي البحث عن سجلات مكتب الزواج من أجانب، وكان الخوف كل

الخوف من لفت انتباه رجال الموساد في النمسا إلى ما ينقبون عنه، لذلك كانت عملية البحث تتم تحت ستار كثيف من السرية والتكتّم، وبواسطة خطاب مزوّر صادر عن السفارة الأردنية في فيينا، يخاطب إدارة مكتب الزواج من أجانب، أمكن الوصول إلى عنوان شقة أمينة وحقيقة الزواج المحرم. في الحال، طار أحد الضباط إلى بيروت يحمل صورة رسمية من عقد الزواج، في الوقت ذاته الذي اقتحم فيها رجال «رصد» شقة أمينة في فيينا، حيث عثروا على أجندة متوسطة الحجم، سجلت فيها مذكراتها وتفاصيل عملياتها في بيروت قبل رحلتها التدريبية الأولى الى إسرائيل.

أخيرا انكشف أمر أمينة، من دون أن يلاحظ رجال الموساد المنتشرون في النمسا أي شيء، أو يخطر ببالهم أن رجالاً يفوقونهم ذكاء ينقبون عن ماض غامض لعميلتهم المدرّبة.

تجمعت كل الأدلة على مكتب أبو إياد الداهية، ولم يكن أمامه سوى محاصرة أمينة والسيطرة عليها، لتكشف النقاب عما أبلغته للموساد، ودورها الحقيقي في ترصّد حركة المقاومة، خصوصا بعد فشل عمليات فدائية عدة كان وراءها جاسوس خفي، وأيضاً لترشد عن بقية أعضاء شبكتها في بيروت أو خارجها.

كانت هناك خطط عدة لاستجواب الخونة والجواسيس يتّبعها رجال المخابرات الفلسطينية، أما والحالة هنا لامرأة عربية فالوضع يختلف، إنها إحدى الحالات النادرة التي تواجه أبو إياد ورجاله، لذلك اقترح علي حسن سلامة الاعتماد على خطة جديدة تناسب الحالة، تقوم على إيهامها بأن زوجها موشيه كان أسيراً لدى السوريين، وأُطلق سراحه منذ أيام ضمن فريق من الأسرى في عملية مبادلة نشرت عنها الصحف.

وكان الغرض من ذلك كله إشعار الجاسوسة بعقدة الذنب، لتحسّ بالندم الشديد على ما ارتكبته فتعترف بلا إكراه أو تعذيب، وعلى ذلك سربوا إليها إحدى الصحف اليومية وقد تصدرت صفحتها الأولى صورة زوجها الأسير وسط الكثير من زملائه، قبلما يغادرون سورية إلى إسرائيل برفقة رجال الصليب الأحمر، كانت هناك بالطبع نسخة وحيدة لتلك الصحيفة طبعت خصيصاً للمهمة المحددة.

وفي تدبير متفق عليه، دخل الحارس يقدم إليها طعام الإفطار وفي يده نسخة من تلك الصحيفة، شاهدت صورة موشيه في الصفحة الأولى، توسلت إلى الحارس أن يقرأ لها المكتوب، فرفض ونهرها، لكنها زادت توسّلاتها فوضع الصحيفة على الأرض، وكانت يداها مربوطتين للحائط بالسلاسل، لكنها تمكنت من قراءة الخبر، موشيه إذن حي، وعاد لإسرائيل، ألجمتها المفاجأة، غمرتها

مشاعر الفرح مع الندم، كادت أن تصرخ، وصرخت بالفعل، فقدت توازنها، وتناست الآلام المبرحة التي تسبّبها لها القيود الحديدية في الزنزانة المظلمة.. سيطرت عليها مشاعر مختلطة كادت تفتك بها، فكانت تضرب برأسها في الحائط، وتصرخ .. وتنادي موشيه أن يأتيها لينقذها.

في 8 سبتمبر (أيلول) 1975، وبعد تسعة أيام من اعتقالها، اقتيدت أمينة المفتي إلى مكتب ضابط مخابرات فلسطيني يدعى «أبو داود»، وبدأ باستجوابها متّبعًا أسلوبًا هادئًا، وواجهها بمذكراتها التي كتبتها بخط يدها وخبأتها في شقتها في فيينا، فعللت ذلك بأنها مريضة بالتوهّم وبأحلام اليقظة، وأنكرت كل ما هو منسوب إليها، وكانت إجاباتها مرتبة منسقة خالية من أي تناقض حسبما تدربت على ذلك، وبدت ثابتة تمامًا أثناء التحقيق معها.

كان مطلوبًا من أبو داود الإسراع بأخذ اعترافاتها قبل أن يهرب أعضاء شبكتها، واستمرت أول جلسة تحقيق معها 18 ساعة متصلة من دون أن تبدي أي ضعف أو انهيار، وكانت كل أسئلة المحقق لها إجابة منطقية عندها، ما عدا شيئا واحدا، إنه سم السيانيد، واستفادت من دراستها للطب النفسي، فبررت وجوده معها بأنها مريضة بمرض الجنون الدوري الذي يدفعها للتفكير في الانتحار(!!)..

لكن لا يغيب عن رجال المخابرات أن هذا النوع من السم غير موجود في الأسواق، ويستخدمه رجال المخابرات فحسب للتخلص من ضحاياهم، وبالتالي كان وجوده معها قرينة مؤكدة أنها عميلة مخابراتية، وأمام نفيها لكل شيء تخلى أبو داود عن أسلوبه الهادئ، وقرر أن يتحول إلــى أسلـوب القهـر والتعذيـب،،، وأنـاب عنـه زميـله «أبو الهول» في مواصلة استجوابها.

كانت أمينة تعلم أن أدلة تورّطها في الخيانة هشة جدا، وكانت تعد نفسها للاستجوابات التالية، لكن المفاجأة التي لم يتوقعها أحد هي أن السلطات اللبنانية تدخلت للإفراج عنها لدى الفلسطينيين، لتقوم هي بالتحقيق معها.

رأى الفلسطينيون أن يسلموها للسلطات اللبنانية كي لا تزداد الخلافات حدة، في وقت كانت الحرب الأهلية بدأت تستعر نيرانها.

رأت السلطات اللبنانية أنها بريئة، وأن الشكوك التي أحاطت بها ظالمة، وهي طبيبة عربية مخلصة لوطنها(!!).... وخيروها بين البقاء في بيروت...

في أعقاب ذلك، قام أبو إياد بزيارة منزلية للشيخ بهيج تقي الدين وزير الداخلية اللبناني، وقال له إن التعاون الأمني بين المنظّمة والسلطات اللبنانية أمر مطلوب، لأن في لبنان طوابير من جواسيس الموساد يجوبون فيها شرقا وغربا، وطلب منه أن تبقى أمينة في حوزتهم لثلاثة أيام ليتمكنوا من كشف شبكتها. وافق تقي الدين على مطلب أبو إياد وأمر باعتقال أمينة مرة ثانية والبحث في أمر العملاء الآخرين.

عادت أمينة مرة أخرى الى زنزانتها تحت الأرض مقيّدة بالسلاسل الغليظة، وطرح رجال المخابرات الفلسطينيون فكرة نقلها الى مكان آخر تحسبًا لأن تعود السلطات اللبنانية بطلبها، أو يقوم الموساد بعملية كوماندوس لخطفها، أو تفجر المكان لسد الطريق على اعترافاتها.

لكن صلاح خلف «أبو إياد» رأى أن تُنقل بأسلوب آخر، لأن نقلها الى مكان جديد موحش سيشعرها بالخوف والرهبة ويجبرها على الاعتراف.

استقر الرأي على نقلها الى كهف السعرانة في الجنوب اللبناني، بالقرب من شاطئ البحر المتوسط، حيث توجد معسكرات الفدائيين الفلسطينيين بالقرب منه.

وسط حراسة مشددة، نُقلت أمينة في سيارة عسكرية وهي مغماة الى منطقة الكهف المذكور، وظلت السيارة تسير بها قرابة ساعتين، وبعدها اصطحبتها أيادٍ خشنة في طريق صاعد وسط الصخور استغرق حوالي ساعتين أيضًا، ثم رفعوا الغمامة من على عينيها، فرأت المكان الموحش المرعب الذي نقلت إليه، ولم تعرف أين هي

بالضبط، إنها على مشارف مغارة لكن لا تعرف في أي أرض تقف، ثم اقتيدت الى مكان شبه مظلم، روّعها ما رأت فيه، فلقد رأت فتاة في مثل سنها مربوطة من قدميها إلى السقف والدماء تسيل من كل جزء من جسدها، كانت جائعة وعطشانة تحلم بكسرة خبز سوداء وشربة ماء ولو من مياه الصرف، ورأت رجلا صارما يطلب من جنوده أن يربطوا يديها ورجليها من خلف، ويعلقوها حتى يجيء أبو الهول.

تعرضت أمينة لأساليب تعذيب نفسية شديدة للغاية، إلى جانب التعذيب البدني، وقام رجال المقاومة بقتل الفتاة التي كانت معلقة بجوارها رمياً بالرصاص على مرأى منها، واتضح بعد ذلك أنها تمثيلية أعدّت بإتقان لبث الرعب داخل أمينة فتنهار وتعترف، وأن الفتاة المعلقة كانت صديقة لرجال المقاومة، وقامت بأداء دورها بكل اتقان على رغم أنها فرنسية الجنسية، وكان من نتائج تلك

التمثيلية المحبوكة أن تعالى صراخ أمينة تطلب أن يكف الجنود عن ضربها بالسياط ويخرجوها لأنها ستعترف بكل ما عندها.

اقتيدت أمينة للاستجواب في مكان خال في الجبل، حتى يبدو أنه خال من أجهزة تنصّت، لكنه في الحقيقة كان مجهزا بدائرة تسجيل تعمل ببطارية سيارة جيب تقف على بعد عشرات الأمتار. تولى أحد الضباط التابعين للعقيد أبوالهول أمر استجوابها فسألها: من هو رئيسك المباشر في الموساد؟

لكنها أجابت: سأموت عطشا.. اسقني**!**

لكنها قبل أن تكمل جملتها كان رد الضابط إشارة بإصبعه الى أحد الجنود ليهوى سوط من نار على ظهرها، فأجابت على الفور: اسمه اشيتوف، فسألها: أين جهاز اللاسلكي ونوتة الشفرة؟ أجابت وهي تنظر الى الكرباج برعب: أمروني أن أضعه في صندوق قمامة أعلى شقتي، وأن أحرق أوراق الشفرة التي كانت بالمصحف.

زاد الضابط المحقق جرعة التعذيب والضغط النفسي عليها كي لا يعطيها فرصة للتفكير والكذب، وأوحى لها أن موشيه كان رجل مخابرات إسرائيليًا تزوجها لتجنيدها وأنه لم يكن يريد منها سوى ذلك، فتوالت اعترافاتها كالسيل، كي لا يتعصب وينفذ تهديده بقتلها بالرصاص، فاعترفت على كل شركائها في لبنان، بمن فيهم مدير السنترال الذي فتح لها الغرفة السرية للتنصت على مكالمات رجال المقاومة. بعد ذلك حضر العقيد أبوالهول بنفسه بوجهه العابس وملامحه الجامدة، وشرع في توبيخ الضباط والجنود الذين لم يعذبوها بما فيه الكفاية، ولامهم أشد اللوم لأن جسدها لا ينزف كله، فإذا ما راحت في شبه غيبوبة من الرعب والخوف وتأكد من انهيار مقاومتها تماما، أخذها ليستجوبها ثانيةً بنفسه، وأمام العقيد أبوالهول، أجابت أمينة عن كل أسئلته، واعترفت بكل شيء، وقصت قصتها كاملة منذ ذهابها الى النمسا وزواجها بموشيه اليهودي واعتناقها لليهودية ثم هجرتها لإسرائيل وعملها مع الموساد.

بعد انتهاء التحقيق معها واستيفائه، أُرسِل الملف بالكامل الى أبو إياد ثم ياسر عرفات، وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي قُبض على مدير السنترال مارون الحايك، ومانويل عساف، وخديجة زهران، لكن عساف ألقى بنفسه من الطابق الخامس ليلقى مصيره منتحرا، في حين استسلم الحايك وخديجة لرجال المخابرات الفلسطينية، واقتيدوا إلى حيث ترقد أمينة في كهف السعرانة، وعلِّقا أمامها، والسياط تلهب ظهريهما، واعترفا تفصيليا بكل ما فعلاه، وبعد انتهاء التحقيق معهما سلِّما للسلطات اللبنانية لمحاكمتهما.

أما أمينة فقد امتنع الفلسطينيون عن تسليمها للسلطات اللبنانية، ولم يستجيبوا لضغوط وزير الداخلية بتسليمها. تغاضى الوزير عن ذلك، وانكمشت أمينة في محبسها مكبلة بالحديد تنتظر الموت بين لحظة وأخرى.

وخضعت لاستجوابات تالية عدة للكشف عن المعلومات التي أدلت بها للموساد لتلافي أي خطر يحيق برجال المقاومة، وليقوموا بتعديل خططهم وتحركاتهم ومخازنهم وعملياتهم التي انكشفت، ويبدو أن اعترافاتها لم تكن كاملة، فقد أخفت الكثير عنهم، وذلك حسبما اعترفت بعد ذلك في مذكراتها التي نشرتها في إسرائيل في أكثر من 600 صفحة.

نشرت الصحف اللبنانية خبر القبض على أمينة وأفراد شبكتها، فارتجت كل أجهزة الموساد، وجرت اجتماعات غير عادية لكبار قادتها، فلا بد من عمل المستحيل لاستعادة عميلتهم الأسطورية، وإلا فإن جواسيسهم في لبنان سيقعون أو سيهربون خوفا وهلعًا. على جانب آخر، أرجأ ياسر عرفات تقرير مصير أمينة، وعارض رأي علي حسن سلامة الذي طلب سرعة إعدامها، فقد كان عرفات يرى فيها فرصة لاستعادة عدد من رجال المقاومة الموجودين في سجون إسرائيل.

لم تضع أمينة وقتها في السجن هباءً، وراحت تنسج شباكها على واحد من حراسها ويدعى حسن الغزاوي، فأقنعته بأن الفلسطينيين فعلوا بها ذلك نكاية في عمِّها الذي يشغل منصبا كبيرا في البلاط الملكي الأردني، لأنهم تصوروا أنه أحد المحرضين على مذابح أيلول الأسود، فتعاطف الرجل معها.

أجادت أمينة لعبة السيطرة عليه، لدرجة أنه أصبح يحلم بالذهاب إلى إسرائيل معها، وبدأ يستجيب لأفكارها في إمكان تهريبها وهروبهما سويا عبر الحدود، فكانت بذلك أول عميلة للموساد تجنّد حارسها. لكن حلمهما خاب عندما أفضى الجندي بسره إلى أحد زملائه في المخيم، فروقب وضُبط وهو يحاول إدخال سترة عسكرية لأمينة كي ترتديها في رحلة الهروب!

وانتهى حلمه بإعدامه رمياً بالرصاص في أكتوبر 1976، وضوعفت القيود الحديدية بيدي أمينة ورجليها، وشُدت مصلوبة إلى الحائط، وقلّل المنصرف لها من الطعام والشراب، حتى تقيحت أطرافها وشحب جسدها، ومرت خمس سنوات وهي بتلك الحالة، حتى باتت لا تحلم إلا بالموت ليريحها من هذا العذاب القاسي جدا.

كانت منظمة الصليب الأحمر تكثف من اتصالاتها بالجانب الفلسطيني سعيا وراء مبادلة أمينة، لكن العرض الإسرائيلي كان هزيلا، فقد طلبوا مبادلتها بفلسطيني واحد شريطة ألا يكون متهما بقتل إسرائيليين، فرفض عرفات واشترط لمبادلتها الإفراج عن اثنين من أشهر الفدائيين الفلسطينيين..

وهما محمد مهدي بسيسو المحكوم عليه بالمؤبد في إسرائيل بسبب قيامه بعملية فدائية بواسطة زورق عام 1971 أسفرت عن مقتل وإصابة عدد كبير من الإسرائيليين، ووليم نصار المحكوم عليه بالمؤبد أيضا لقتله ثلاثة إسرائيليين عام 1968 بالقدس.

قوبل الرد الفلسطيني بتعنّت، وقال ممثل الصليب الأحمر لياسر عرفات إنها لا تساوي شيئا عندهم، فهي مصنفة على أنها خائنة لوطنها ودينها وأهلها، فكان رد عرفات أن لا حل أمامه سوى الاستجابة للضغوط وإعدامها أمام شاشة التلفزيون لتكون عبرة لكل عملاء إسرائيل، فانزعج إسحاق حوفي من هذا الرد، لأنه يصيب كل عملاء الموساد في الدول العربية بالهلع، وقد يتسبب ذلك في تعطيل شبكاته التي أنفقوا عليها ملايين الدولارات، ولم يجد بدًّا من الاستجابة لطلب الفلسطينيين، على أن يترك لمنظمة الصليب الأحمر اختيار البلد الذي تتم المبادلة على أرضه وتحت حمايتها.

قامت منظمة الصليب الأحمر بتنشيط اتصالاتها بعدد من الدول لكي تتم عملية المبادلة على أرضها، فرفضت حكومات فرنسا وإيطاليا واليونان وبلغاريا، بينما وافقت حكومات تركيا ورومانيا وقبرص على تأمين الحماية للطرفين فوق أراضيها، ووافق الطرفان على قبرص.

وأعلن وزير الداخلية القبرصي أن عملية المبادلة حدّدت في 13فبراير (شباط) 1980 على أرض مطار لارناكا الدولي، وتقرر إغلاق المطار أمام الملاحة الدولية في هذا اليوم بدءاً من الساعة 14:00 حتى الساعة 20:50، وظلت الأعصاب متوترة مشدودة منذ تقرر المكان والزمان.

قبل الموعد بعشرة أيام، زار أمينة في السجن ضابط من قيادة المنظمة، وأمر بفك قيودها، وتقديم الطعام الشهي لها لتستعيد قوامها، وأعطاها محاضرة بليغة في القيم، وشرح لها حجم جريمتها في حق وطنها ودينها وأهلها، وقال لها إنها مسؤولة عن آلاف الأيتام ومئات الأرامل، وكم من بيوت خربت بسببها، وكم من دماء طاهرة سالت بسبب خيانتها، فكانت تبكي.

ولا أحد يعلم أهو بكاء الفرح أم بكاء الندم، لكنها تعترف في مذكراتها بأن كلمات الضابط كانت أقسى من رصاصات مدفع رشاش تخترق جسدها.

في صباح 9 فبراير، نقلت أمينة سرا إلى معسكر جنوب صيدا، ونقلت مساءً بسرية تامة إلى بيروت، وسط طابور من سيارات الحراسة المسلحة، حيث أودعت إحدى الغرف في مقر المنظمة في بيروت، بعدما قضت في كهف السعرانة 1561 يوما طبقا لحساباتها التي نشرت في مذكراتها، وفي مقر المنظمة رافقتها فتاتان، ونامتا معها، لكنها لم تنم ليلتها، فهي لو سافرت الى إسرائيل لن يُسمح لها بمغادرتها، وستعيش باقي عمرها فيها، وتذكرت لحظتها أمها وأسرتها..

فانتفضت من فراشها تصرخ وتبكي: لا أريد العودة الى إسرائيل.. اتركوني هنا، اعدموني هنا، أعيدوني لسجن كهف السعرانة، أكره إسرائيل.. أكرهها.

كانت في قمة ندمها، وتوسلت لهم أن يعدموها، أو يتركوها بقية حياتها في السجن مكبلة بالحديد لكن لا يتركوها تعود لإسرائيل، فكان رد الضابط أنهم سيبادلون خائنة باثنين من الأبطال، ثم دخل طبيب ليحقنها بمخدر جعلها تروح في نوم عميق.

في مساء 13 فبراير 1980، اقتيدت أمينة وسط حراسة مشددة إلى مطار بيروت، وركبت طائرة خطوط الشرق الأوسط وسط عدد من الضباط والجنود الفلسطينيين وممثلي الصليب الأحمر، واتجهت الطائرة إلى أنقرة، خشية اعتراضها من سلاح الجو الإسرائيلي، ومن أنقرة عادت الطائرة إلى قبرص، داخل الغلاف الجوي اليوناني.

كانت قبرص في هذا اليوم تعيش يوما عصيبا لم تر مثله، حيث شهدت استنفاراً أمنياً غير مسبوق، وامتلأت شوارعها بالسيارات المصفّحة، واعتلت القناصة الأسطح، وأحاطت المدرعات بمطار لارناكا، ولما هبطت الطائرة اتجهت إلى حظيرة خاصة تحيط بها أرتال من المدرعات، وحبس الجميع أنفاسه لحين هبوط طائرة العال الإسرائيلية.

ولما حانت لحظة إخراج أمينة تمنعت بشدة، فحملها ضابط على أكتافه وأودعها مدرعة قبرصية أقلّتها الى طائرة العال في اللحظة نفسها التي كانت مدرعة أخرى تقل البطلين الفلسطينيين.

استغرقت عملية المبادلة حوالي 43 دقيقة حبس فيها الكل أنفاسه، راحت خائنة، وعاد بطلان، وكان ياسر عرفات في شرف استقبالهما.

أما أمينة فقد انتهت بها الحال بالعيش أشهر عدة في مصحة نفسية، ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، وتعددت روايات كثيرة حول مصيرها، فهناك من يقول إنها قامت بعمل جراحة لتغيير ملامحها وهاجرت الى الولايات المتحدة، وهناك مصادر تقول إنها هاجرت إلى جنوب إفريقيا.